توطئة

١. سرُّ الخلاص في التاريخ وفي الليترجيّا

الله الآبُ الذي لا يمكنُ إدراكه وغيرُ المتبدِّل أوحى للبشر سرّه وتدبير محبّته الذي تحقّق بالابن في الروح القدس لأجل خلاص العالم. في الخلق، دعا الله العالم إلى الوجود وجعله جميلاً للإنسان المصنوع على صورة الله كمثاله (تك ١: ٢٦). ولما خبر الإنسانُ مرارة الخطيئة، لم يُهمله الآب؛ لكن برحمته ضمّد جراحاته وقدّم له الخلاص وصالح أجدادنا الأولين والآباءَ والأولياءَ وجماعةَ المختارين كلّهم وأبرم عهداً مع شعبه.

وفي ملء الزمان، وبفعل الروح القدس اتّخذ الكلمةُ جسداً من مريم البتول، متنبّساً ومعتنقاً الطبيعة البشريّة في حشاها البتوليّ. وبعد أن أقام بين البشر وأعلن بشارة الملكوت بالأقوال والآيات، أحبّ هكذا الكنيسة، عروسته، حتى إنه بذل نفسه ذبيحةً ساميةً على الصليب، لينزع عنها كلَّ وصمة ويُلبسَها رداءَ الجمال والبهاء. في السرِّ الفصحيِّ لموت المسيح وقيامته، أفاض، وهو الفصحُ الجديد، الذبيحةُ والكاهنُ، على الكنيسة الدم والماء، رمزاً للأسرار المقدّسة، وأغدق عليها موهبة الروح القدس. وإذ إنه دخل مقدس

السماء فهو يشفع في البشر (عب ٧: ٢٥). ومن ثَمَّ، تسيرُ الكنيسة، عروسُه وجسدُه، في الزمان والمكان، في شركة دائمةٍ مع السماء، متّجهةً نحو الأفراح الأبديّة. في شركة القدّيسين. وهي لا تكفُّ أبداً عن حمده والتضرّع إليه حتى مجيئه الثاني.

انطلاقاً من جرن المعموديّة، يلدُ المسيحُ الربُّ للكنيسة أبناءها الذين يحملون صورةَ الناهض من بين الأموات الموسومين بها. باتحادهم بالمسيح في الروح القدس يؤهّلون للاحتفال مع المسيح بالليتورجيّا المقدّسة، العبادة الروحيّة.

ليتورجيّا الكنيسة هي قبل كلّ شيء احتفالٌ، بواسطة الروح القدس، بسرّ خلاصنا، ذلك الخلاص النابع من فصح ربّنا يسوع، في طاعة لمشيئة الآب السماويّ الأبديّة. في سرّ طقوس الأسرار، يقرّب المسيحُ الناهضُ من بين الأموات ذاته، ويجعلنا مشاهين بالتمام لصورته بموهبةٍ من روحه، بحيث تصبح لنا «الحياةُ هي المسيحُ» (في ١: ٢١).

ويحضر الربُّ عندما تُعلنُ كلمةُ الله في الجماعة فتتقبّلها بقلب طاهر. في أسرار التنشئة المسيحيّة، ينال أبناءُ الكنيسة موهبة الموت مع المسيح الربّ، فيُدفنون معه ويقومون معه (روم ٦: ١-١١؛ كو ٢: ٢٠؛ ٣: ١-٤). وبالتماهي مع المسيح الكاهن، يُعطى لبعضٍ من أبنائه، المختارين لخدمة

الكهنوت، أن يخدموا شعبَه الكهنوتيّ والملوكيّ، وأن يتفوّهوا باستدعاءِ الروح القدس (الإبيكليسيس) كي يُدخلَ الروحُ الشعبَ في حضرة العظمة الإلهيّة فيرفعوا إليها التمجيدَ والحمدَ ويعبّروا لها عن الشكر. في وليمة عرس الإفخارستيّا، يقرّب العريسُ جسدَه ودمَه، باكورةً للملكوت الموعودِ والمنشود، والذي أضرمه نارُ الروح. في سرّ الزواج، تتّحد الكنيسةُ بالعريس في خصب أولادٍ جدُدٍ وفي التزام الشهادة والرسالة. وفي سرّ التوبة، تتقبّل الكنيسة مجدّداً، في حضرة الآب، الابنَ الذي أضاعته، ولكن عاد فوُجد (لو ١٥: ١١-٣٢). وفي مسحة المرضى بالزيت المقدّس، تلتمس الكنيسةُ من ربِّها الشفاءَ وغفرانَ الخطايا. وباتحادها بالمسيح المصلّي الذي يستلهمه الراهبُ بالأخصّ مدى حياتِه كلّها، تصعّد الكنيسةُ على الدوام، في الروح القدس، إلى الآب الحمدَ والشكران وتوسّلَ الاستدعاء. وتمتدّ ليترجيّاها في «زمن الخلاص» المفعمةِ ساعاتُه بالنعمة.

في تشعّب تلك الأسرار، تربطُ الليترجيّا منذ الآن الأرضَ بالسماء، ومن ثَمّ بالليترجيّا الإلهيةِ الكاملةِ المحتفلِ بها هنالك، إلى الوقت، عند مجيء الربّ، الذي سيُتاح فيه للبشريّة أن ترى الله كما هو، وأن تعبُد بدون انقطاع الثالوثَ الكليَّ القداسة.

٢. الليترجيّا في الكنائس الشرقيّة

في رسالة يوحنا بولس الثاني الرسوليّة، «**نور الشرق**»، يدعو قداستُه إلى الإصغاء إلى كنائس الشرق، «التي تعبّر تعبيراً حيّاً عن ثروة التقليد التي تحتفظ بها»، إذ إنه، يتابع البابا، «فيما أتأمل هذا التراثَ تتراءى لناظريَّ عناصرُ قيّمةٌ تساعد على فهم الاختبار المسيحيِّ فهماً أشملَ وأدقّ، ومن ثمّ تساعد على إعطاء جواب أوفى عن تطلّعات رجال ونساء اليوم. في الواقع يلعب الشرقُ المسيحيُّ دوراً فريداً ومميَّزاً، بالنسبة إلى كلّ عبادة أخرى، بمقدار ما يشكّل الإطارَ الأصيل للكنيسة الناشئة»[1]. من هذا القبيل، وفيما نذكّر «بأيّ حبّ يحتفل المسيحيّون الشرقيّون بالليترجيّا المقدَّسة»[2]، نشير إلى أنه، في الاحتفال الليترجيّ، «يُدرِكُ معنى السرّ بقوةٍ جميعُ مؤمني الشرق المسيحيّ»[3]، وأن «الصلاة الليترجيّة في الشرق تُظهر استعداداً عظيماً لإشراك الشخص البشريّ بأكمله: فالسرُّ يُنشَد في سموّ محتواه، ولكن أيضاً في حرارة العواطف التي يُثيرها في قلب البشريّة المخلَّصة. في العمل القدسيّ، تُدعى الطبيعةُ الجسديّة، هي أيضاً، إلى التسبيح. والجمالُ – الذي هو

[1] يوحنا بولس الثاني، رسالة «**نور الشرق**» الرسولية (٢ أيار ١٩٩٥)، ٥: أ ك ر ٨٧ (١٩٩٥)، ٧٤٩.

[2] المجمع الفاتيكاني الثاني، القرار المجمعيّ «**الحركة المسكونيّة**»، ١٥.

[3] «**نور الشرق**»، ٦: أ ك ر ٨٧ (١٩٩٥)، ٧٥١.

الفصل الأول

معنى هذا التوجيه وطبيعته

٣. المجمع الفاتيكانيُّ الثاني والليترجيّا

«كلُّ كاتبٍ متتلمذٍ لملكوت السماوات يشبه إنساناً سيّدَ بيتٍ، يُخرج من كنزه جدُداً وعتُقاً» (متى ١٣: ٥٢). هذه العبارة يمكن أن نلخّص موقفَ الآباءِ الملتئمين في المجمع الفاتيكانيّ الثاني. ومنها استُوحيت الدساتيرُ والقراراتُ التي وافق عليها المجمعُ نفسه، ووثائقُ التفسير والتطبيق، بغيةَ المباشرةِ بتنفيذ القرارات التي اتُّخذت في أثناء المجمع.

وليس من الصدَف أن تكون الوثيقةُ الأولى التي أصدرها المجمعُ الفاتيكانيُّ الثاني هي وثيقةُ الليترجيّا المقدّسة. وأشار هذا المجمعُ نفسُه إلى أهميّة ذلك الاختيار لافتاً النظر إلى أن إعادة الألَقِ إلى الليترجيّا وتجديدَها يجب أن يُعتبرا «علامةً لتدابير العناية الإلهيّة على كنيستنا»[٧]؛ إذ إنه، في كلّ يومٍ، تجعلُ الليترجيّا من الذين هم في الكنيسة هياكلَ مقدّسةً للربّ، منزلاً لله في الروح (أف ٢: ٢-١٢)، إلى أن يَنتهوا «إلى ملءِ اكتمال المسيح» (أف ٤: ١٣)؛ وفي الوقت عينه،

[٧] المجمع الفاتيكاني الثاني، الدستور الراعويّ «**الليترجيّا المقدّسة**»، ٤٣.

وبحالٍ عجيبة، تزيد الليترجيّا من عزمهم وقدرتهم على إعلان المسيح[٨].

هيّأ وضعَ الدستور «في الليترجيّا المقدّسة» عقودٌ من سنوات التفكير، وأعدّه بالأخصّ ما كان يسمّى «الحركة الليترجيّة»، وتبعَه عملٌ جماعيٌّ مكثفٌ بذل قصارى جهده في توضيحه وإدخاله تدريجيّاً في حياة كنيسة الغرب، ناشراً روحَه وواضعاً بعضَ القوانين ومثبتاً إيّاها في الكتب الليترجيّة.

٤. مبادىءُ ونُظمٌ للكنائس الشرقيّة مجمعيّةٌ وما بعد المجمع

ترتكز جميعُ الكنائس المسيحيّة على بشارة المسيح الواحدة، وتتقاسمُ ضرورةً تراثاً مشتركاً. لذلك يؤمِّن العديدُ من مبادىءِ الدستور المجمعيّ في الليترجيّا عناصرَ شاملةً تصلحُ لليترجيّات جميع الكنائس، ويجب أن تطبَّق أيضاً في احتفالات كنائسَ لا تتبع الطقس الرومانيّ[٩]. إن النُظم العمليّةَ الواردةَ في ذلك الدستور وتلك التي وردت في مجموعة الحقّ القانونيّ الصادر، العام ١٩٨٣، يجب أن تُعتبر وكأنها تخصُّ الكنيسة

[٨] المرجع نفسه، ٢.

[٩] المرجع نفسه، ٣.

اللاتينيّة وحدها[10]. أما المبادىء والنظمُ ذاتُ الطابع الليترجيّ التي تعود مباشرةً إلى الكنائس الشرقيّة فهي متضمّنة في عدّة وثائقَ مجمعيّة، في «**نور الأمم**» (٢٣) مثلاً، و«**الحركة المسكونيّة**» (١٤-١٧)، و«**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**». ففيها يُشاد بالقيمة الثابتة التي تتحلّى بها تقاليدُ الكنائس الشرقيّة الخاصّة، ومن ثمّ المتنوّعة. بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني تشكّل «**مجموعةُ قوانين الكنائسِ الشرقيّة**» أهمّ مجموعةِ نظُمٍ للكنائس الشرقيّة.

تعرض الوثائقُ المنصوصُ عنها مبادىءَ عامّةً ونُظماً عمليّةً تتعلّق بمختلف أوجه الحياة الكنسيّة. والبعضُ منها يسنُّ قوانين، على الصعيد الليترجيّ، مشيراً إلى نُظمٍ تُلزم جميعَ الكنائس الشرقيّة الكاثوليكية؛ وهي لا تدّعي بالطبع أن تستنفدَ مجموعَ التوجيهات التي تنظّم الاحتفالات الليترجيّة في كلٍّ من الكنائس ذات الشرع الخاصّ. فمثلُ تلك الأحكام تعودُ في الواقع إلى الشرع الخاصّ بكلّ كنيسة.

[10] **المرجع نفسه**، ٣؛ «**مجموعة الحقّ القانوني**»[CIC] التي أصدرها يوحنا بولس الثاني في ٢٥ كانون الثاني ١٩٨٣، ق ١.

٥. ماهيّة التوجيه الحاضر لتطبيق الأنظمة الليترجيّة الواردة في «مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة»

إن الشرائعَ الليترجيّةَ الصالحةَ لكلّ الكنائس الشرقيّة هامّةٌ جدًّا لأنها تشير إلى إرشاداتٍ عامّة. إلاّ أنّه، وقد توزّعت في نصوصٍ عديدة، يُخشى أن تبقى مغمورة، سيئةَ التنسيق، سيئةَ التفسير. لذلك رأينا من المناسب بأن تُجمع في وحدةٍ منسّقة، تكمّلها توضيحاتٌ لاحقة: ذلك هو الهدفُ من هذا التوجيه المرفوعِ إلى الكنائس الشرقيّة الكاملةِ الشركةِ مع الكرسيِّ الرسوليّ، كي يساعدَها في تحقيق هُوّيتها الخاصّة تحقيقاً كليّاً. إنّ التوجيهات العامة المعوَّل عليها والمنصوصَ عنها في هذا التوجيه لحسن سير الاحتفالات والحياة الليترجيّة في الشرق، تتمحور، بانطلاقها على الدوام من بُعدٍ لاهوتيّ، حولَ اقتراحاتٍ ذاتِ طابعٍ قانونيّ - راعويّ.

يهدف التوجيه إلى النقاط التالية:

- أن يقود إلى تعمّقٍ أفضلَ في الثروات الخاصّة بالتقاليد الشرقيّة الأصيلة، الواجبِ المحافظةُ عليها بحرصٍ شديد وإيراثُها جميعَ المؤمنين.

- أن يجمع في إطار أساسيٍّ النُظمَ الليترجيّة الصالحة لجميع الكنائس الشرقيّة الكاثوليكية، وأن يحمل، حيث تدعو الحاجة،

على العودة إلى الأصالة الليترجيّة الشرقيّة وفاقاً للتقليد الـــذي ورثته كلُّ كنيسة شرقيّة من الرسل بواسطة الآباء.

– أن يحضَّ على تنظيم التنشئة الليترجيّة الدائمة، على أسسٍ متينة، إمّا للإكليروس انطلاقاً من الإكليريكيّـــات ومعـــاهدِ التنشئة، وإمّا لشعب الله بواسطة مدارسِ تعليم مسيحيٍّ لتلقين أسرار الدين.

– أن يضع لائحة بالمبادىء المشتركة لتحضير دليلٍ ليـــترجيّ لكلّ كنيســـة ذاتِ شرعٍ خاصّ.

يبغي التشبيهُ المتواترُ مع الليترجيّا الرومانيّة أن يلفـــتَ الأنظارَ إلى الخصائص الشرقيّة التي غالباً ما تتعـــرّض للضـــرَر وحتى للزوال لدى احتكاكها بالكنيسة اللاتينيّـــة، وكذلـــك القول عن مؤسّسات [الكنائس الشرقيّة]، وتعمّقاتها العقائديّة، وممارستها الليترجيّة، وتنظيمها الداخليّ الأكـــثر ترابطـــاً، في الغالب، بسببٍ من ظروفٍ تاريخيّة أوفرِ ملاءمةً.

٦. وضع دليلٍ ليترجيٍّ خاصٍّ

يقتصر التوجيهُ الحاضر، الموضـــوعُ علـــى أســـاس ملاحظات الكرسيّ الرسوليّ والتقاليد الليترجيّة الشرقيّة، علـــى أبداءِ مبادىءَ وقواعدَ تصلـــحُ لجميـــع الكنـــائس الشـــرقيّة الكاثوليكية. إن سلطاتِ كلّ كنيســـة ذاتِ شـــرعٍ خـــاصّ

مدعوّة، وفقاً لتعليمات القرار الرسوليّ «**القوانين المقدّسة**»[١١]، إلى تقبّلها بكلّ طيبة خاطر وإلى إدراجها في أحكام شـــرعها الليترجيّ الخاصّ.

أما المجموعاتُ الكنسيّة ذاتُ الشرع الخاصّ المنتميـــة إلى الأسرة الليترجيّة الواحدة، من مثل الكنائس ذات التقليـــد القسطنطينيّ أو الأشّوريّ–الكلدانيّ، فلسوف يسهر الكرســـيُّ الرسوليُّ، بالاتفاق مع الكنائس المعنيّة، على أن يضـــع لهـــا تعليماتٍ أكثر تفصيلاً. وعلى كلّ كنيسة ذاتِ شرعٍ خـــاصّ منتمية إلى مثل تلك الأُسَر، أن تُعنى، وفقاً لأحكـــامٍ ســـوف توضع، أن تجهّز مجموعةً من النُّظم تهدف إلى توفيق حالتـــها الخاصّة المميّزة مع الوثيقة الحاضرة ومع تلك الـــتي ســـتجهَّز للأسرة جمعاء ذاتِ الانتماء الليترجيّ الواحد.

أمّا الكنائسُ ذاتُ الشرعِ الخاصّ التي لا تنتمـــي إلى أسرةٍ ليترجيّةٍ أكثرِ اتّساعاً، فعليها أن تحضّر، في أقرب وقـــتٍ ممكنٍ، نُظمَها الخاصّة، انطلاقاً من التوجيه الحاضر. والكرســـيُّ الرسوليُّ على استعدادٍ لأن يوفد خبراءَه للتعاون مع الكنـــائس ذات الشرع الخاصّ، بغيةَ تحضيرِ مثل تلك النُظم الخاصّـــة، إذا رأت تلك الكنائس أنها بحاجةٍ إلى ذلك وتقدّمت بطلـــب. وفي

[١١] أ ك ر ٨٢ (١٩٩٠)، ١٠٣٧-١٠٣٨.

نهاية المطاف سوف يُرفع إلى الكرسيّ الرسوليّ الدليلُ الليترجيُّ العائدُ إلى كلّ كنيسة ذاتِ شرعٍ خاصّ.

الفصل الثاني

القيمةُ الثابتة للتراث الخاصّ بالكنائس الشرقيّة وضرورةُ ازدهاره

٧. تراث الكنائس الشرقيّة

تؤكّد الوثائقُ المجمعيّة، و«**مجموعةُ قوانين الكنائس الشرقيّة**» «م.ق.ك.ش.» وتصريحاتُ السلطة المعوَّل عليها المتكرّرة، القيمةَ الثابتة للتراث الخاصّ بالكنائس الشرقيّة. يعلنُ الرقمُ ٢٣ من «**نور الشرق**» أن تلك الكنائس، بعونٍ منه تعالى، – وقد بقيت مصونةً وحدةُ الإيمان ووحدةُ الحياة الإلهيّة في الكنيسة الجامعة – تتمتّع بتراثٍ لاهوتيّ وروحانيّ خاصّ، وبنظامٍ خاصٍّ وبعوائدَ ليترجيّة خاصّة. ويحدّد الرقمُ ١ من القرار المجمعيّ «**في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**» أنّه في هذه الكنائس يتألّق التقليدُ الذي انتقل من الرسل بطريق الآباء، والذي يشكّل جزءًا من تراث الكنيسة الجامعة الموحى به إلهيّاً والذي لا يتجزّأ.

داخلَ وحدة الإيمان الكاثوليكيّة يعبِّر كلٌّ من هذه التقاليد عن تنوّع مظاهره[١٢]. ويتجلّى كمالُ سرِّ الله تدريجيّاً وفقاً للظروف التاريخيّة وثقافةِ الشعوب ويعبَّر عنه بأساليبِ عيشِ الإيمان الخاصّة بكلٍّ من الكنائس الشرقيّة[١٣].

٨. تبيانُ الكنائس الشرقيّة

في الحديث عن مختلف تجمّعات الكنائس المرتبطة عضويّاً، يؤكّد الرقم ٢٣ من «**نور الأمم**» أن «بعضاً منها، وبخاصّةٍ الكنائسَ البطريركيّةَ العريقةَ في القدَم، كنَّ «منابع» إيمانٍ بولادتها كنائسَ أخرى كبناتٍ لها، لا تزال نربطها بها، حتى اليوم، صِلاتٌ وثيقةٌ من المحبّة». وتكرّر «م.ق.ك.ش.» التأكيدَ نفسَه عندما تتحدَّث عن كنائسَ ذاتِ شرعٍ خاصّ بصفتها «جماعةً من المؤمنين تدعمُهم رئاسةٌ كنسيّة» (ق ٢٧)، وعندما يذكّر بالطقوس التي تشكّل تراثَهم الخاصّ (ق ٢٨، البند ١)، محدّداً أن هذه الطقوس تتأتّى من التراثات الإسكندريّة والأنطاكيّة والأرمنيّة والكلدانيّة والقسطنطينيّة (ق ٢٨، البند ٢).

[١٢] «**مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة**» (م.ق.ك.ش.)[CCEO]. التي أصدرها يوحنا بولس الثاني في ١٨ تشرين الأول ١٩٩٠، ق ٣٩.

[١٣] م.ق.ك.ش، ق ٢٨.

٩. ميزة تراث الكنائس الشرقيّة الخاصّة

تحتفظ هذه الكنائسُ بحرصٍ شديدٍ باللاهوت الرمزيّ الكتابيّ، الذي كثيراً ما وضّحه الآباء؛ وهي تحافظ على معنى السرّ العجيبِ الفائقِ الوصف الذي يشكّلُ ويميّزُ القيامَ بالاحتفال؛ وتتمسّك، نصّاً وروحاً، بمعنى الليترجيّا كتمجيدٍ لا ينقطع والتماسٍ للغفران واستدعاءٍ للروح متواصل، يعبَّر عنها بصيَغٍ ثريّةٍ وفي الوقت عينه إيحائيّة. إنها ثريّةٌ بما تتحلّى به من روحانيّةٍ مستقاةٍ مباشرةً من الكتاب المقدّس، وبالتالي من لاهوتٍ أقلّ خضوعاً لمقولات عقلانيّة مباشرة. ولأسبابٍ تاريخيّة وثقافيّة حافظت [تلك الكنائس] على استمراريّةٍ أكثر اتصالاً بالجوِّ الروحانيِّ السائدِ في الأصول المسيحيّة. ويرى الغربُ أيضاً، بتواتر متزايد، في تلك الميزة لا علامة جمودٍ وانكفاء، بل أمانةً ثمينةً لينابيع الخلاص.

يُظهر القانونُ ٢٨، البند ١، من «م.ق.ك.ش.» المستندُ إلى الرقم ٢٣ من «**نور الأمم**»، وإلى الرقم ٣ من «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**» أهمَّ الميادين التي يتّصل بها التراثُ الخاصُّ بالكنائس الخاصّة ذاتِ الشرعِ الخاصّ، وهي: الليترجيّا واللاهوت والروحانيّة والنظام. ومن الضروريّ أن نشير إلى أن هذه الحقوق الخاصّة تتداخل وتتفاعل ضمن رؤيةٍ

شاملة للوحي الإلهيّ الذي ينفذ إلى الحياة كلّها ويبلغ أوجه في تسبيح الثالوث الأقدس.

إن مثل تلك الوقائع يفترض فكرة تاريخ، فكرة ثقافة، ومفاهيمَ وعوائدَ تخصُّ كلَّ كنيسة. وتشكّل قدراً من الأشعة الصادرة من الربّ الأوحد، شمس العدل الذي ينير كلّ إنسان (يو ١: ٩) ويقوده إلى العيش في شركة معه. كلٌّ من هذه الأشعّة، وقد التقطته كلُّ كنيسة خاصّة، له قيمه وقدرة لامتناهية، ويشكل جزءاً من تراث الكنيسة الشامل.

١٠. واجب الحفاظ على التراث الشرقيّ

فيما يتمنّى القرار المجمعيُّ «**الكنائسُ الشرقيّة الكاثوليكيّة**» والوثائق اللاحقةُ أن تزدهرَ تلك الثرواتُ وتُسهم دائماً بفعّاليّة أكبر في إعلان الإنجيل للعالم، يعود فيؤكد أنه يحقُّ للشرقيّين، بل يجب عليهم، أن يحتفظوا على الدوام بطقوسهم ويزيدوا بها معرفةً وممارسةً[١٤]. يحتوي مثلُ هذا التأكيد على إدانةٍ صريحةٍ لكل محاولةٍ تبعد المؤمنين الشرقيّين عن كنائسهم، إما بطريقة جليّة لا انعكاس فيها، مع ما يتبّع ذلك من نتائجَ قضائيّة، فيتمّ النقلُ من كنيسة ذات شرعٍ خاصّ إلى كنيسة أخرى[١٥]، وإمّا بطريقةٍ أقلّ جلاءً،

[١٤] راجع المجمع الفاتيكاني الثاني، قرار في «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**»، ٦.

[١٥] م.ق.ك.ش.، ق. ٣١ و ١٤٦٥.

فيشجَّع المؤمنون على اكتساب أشكالٍ من التفكير والروحانيّة والعبادة لا تتوافق والتراث الكنسيَّ الخاصّ، وذلك بعكس التوجيهات التي طالما كرّرها الأحبار الرومانيّون والتي سبق وعبّر عنها بحزمٍ شديد البابا لاون الثالث عشر في رسالة «**كرامة الشرقيّين**» الرسوليّة.

يتجلّى خطرُ فقدان الهُويّة الشرقيّة بالأخصّ في زمنٍ مثلِ الوقت الحاضر الذي يتميّز بهجراتٍ كثيفة من الشرق نحو بلدان تُعتبر أكثر ضيافةً يسود فيها التقليد اللاتينيّ. وتغتني البلدانُ المضيفةُ هذه بتراث الشرقيّين الخاصّ لدى نزولهم فيها، بحيث إن المحافظة على مثل هذا التراث يجب أن يدعمه ويشجّعه ليس فقط الرعاةُ الشرقيّون بل أيضاً الرعاةُ اللاتين في بلدان الاستيطان، لأنه يعبّر عن ثراء كنيسة المسيح المتنوّع الأشكال.

١١. تقدّم التقليد

في رسالة «**نور الشرق**» الرسوليّة، يشدَّدُ على الدورِ المتعذّرِ استبدالُه الذي يلعبه المؤمنون الشرقيّون الكاثوليك «الحاملون النشيطون مع إخوانهم الأرثوذكس لتقليد الكنائس الشرقيّة الجليلِ والعريقِ في القدَم». إنه تعبيرٌ يتلاقى وما سبق أن أُعلن في القرار المجمعيّ «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**». فهناك علاوةً على ذلك يُتمنّى أن تقوم

الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة برسالتها بنشاطٍ متجدّد. هذا لا يستبعد مواكبة الحداثة، لأنه في الواقع لم تستطع قطُّ أيُّ كنيسة شرقيّة أو غربيّة أن تصمدَ ما لم تتكيَّف على الدوام مع تبدّل أوضاع الحياة. لكن الرسالة الآنفةَ الذكر تحذّر من كلّ تسرّعٍ لا مبرِّر له وفي غير أوانه، وتطالبُ بأنَّ كلَّ تبديلٍ محتمَلٍ يجب ليس فقط أن يمحَّص درساً، بل أن يستوحي أيضاً التقاليدَ الأصيلةَ ويكون مطابقاً لها.

١٢. مقاييس لتفسير التقدّم التنظيميّ

يؤكد المجمع أنه لا يمكن أن يُدرج تبديلٌ في طقوس تلك الكنائس وأنظمتها دون احترام التقدّم التنظيميّ الخاصّ[١٦]، ويضيف أنه إذا ما حصل مثل تلك التبديلات بسبب ظروف زمانٍ أو أشخاصٍ، فيجب السعيُ للعودة إلى التقاليد القديمة[١٧]. يرى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في ذلك «رمزاً لموقف الكرسيّ الرسوليّ الثابت، شدّد عليه المجمع بفعّالية طالباً إلى الكنائس الشرقيّة الكاملةِ الشركة مع هذا الكرسيّ أن تتشجّع وتكتشف مجدّداً تقاليدَ هويّتها الخاصّة

[١٦] راجع أيضاً: «**م.ق.ك.ش.**»، ف ٤٠، البند ١.

[١٧] «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**»، ٦.

وتكتشف مجدّداً تقاليدَ هويّتها الخاصّة الأصيلة، وتعيد إليها نقاوتها الأولى، حيثما تدعو الحاجة»[١٨].

يتطلّب التقدّمُ التنظيميُّ في كل كنيسة ذات شرعٍ خاصّ أن تُؤخذَ بعين الاعتبار، قبل كلّ شيء الجذورُ التي منها تطوّر في البدء تراثُ تلك الكنائس، بالأخصّ في أورشليم والإسكندريّة وأنطاكيّة والقسطنطينيّة وأرمينيا وفي مملكة فارس القديمة؛ ومن جهة أخرى، يفترض ذلك التقدّمُ أن تُؤخذَ بعين الاعتبار أيضاً طرقُ تناول تلك التقاليد التي حوفظ عليها في ديمومةٍ تنظيميّة منسجمة.

لشرح هذا المبدإ، من المناسب أن نذكّر بإرشادٍ للبابا بولس السادس بعث به إلى أعضاء اللجان الذين أوكل إليهم إعدادُ «م.ق.ك.ش.». في الحديث عن هدف المجموعة المزدوج (الأمانة للتقاليد والانفتاح على متطلّبات عالمنا)، أشار بولسُ السادس إلى أيّ مقدارٍ يجب أن يسترعي الانتباه ويُؤخذ بعين الاعتبار أسلوبُ تناقل التراث، كلّما اقتُرحت أشياءُ جديدة. في الواقع، كلُّ تجديد يجب أن يكون منسجماً ويتوافق مع التقليد الصحيح، بحيث لا تظهر النظمُ الجديدة

[١٨] يوحنا بولس الثاني، عظة في أثناء الليتورجيّا الإلهيّة بالطقس الأرميّ (٢١ تشرين الثاني ١٩٨٧): **الأوسرفاتوري رومانو**، ٢٣-٢٤ تشرين الثاني ١٩٨٧، ص ٦؛ راجع أيضاً Servizio Informazioni per le Chiese Orientali، ملحق للأعداد ٤٨٥-٤٥٦؛ ص ٥.

وكأنها جسمٌ غريبٌ أُقحم في التنظيم الكنسيّ، بل تزدهر تلقائيًا نوعًا ما انطلاقًا من النظم المعمول بها[١٩].

[١٩] بولس السادس، خطاب ١٨ آذار ١٩٧٤: Nuntia ١ (١٩٧٥)، ٦.

الفصل الثالث

ثراءُ التراث الليترجيّ

١٣. التراثُ الشرقيّ أوسع نطاقاً من الليترجيّا وحدها

من المؤكد أنه يجب ألاّ نخصّ بامتيازٍ النزعةَ إلى حصر التراث الذي يميّز الكنائسَ الشرقيّةَ في الإطار الليترجيّ وحدَه. يمكن أن تكونَ الجاذبيّةُ التي يُثيرها طابعُ الطقوس القدسيّ، والشعورُ العميقُ النابعُ من وحي النصوص قد حملت على رفع شأن المظهر الخارجيّ المؤثّر، يلجأ إليه، كإلى ملاذٍ سهلِ المنال، أولئك الذين يُنكرون على الليترجيّا اتصالَها الضروريّ بالحياة. هذا ما قاد أحياناً الشرقيّين الكاثوليك أنفسَهم إلى اعتبار التراث الليترجيّ وحدَه تراثاً خاصاً ومميّزاً، سالكين، بالعكس، في ما يخصّ مظاهرَ الروحانيّة الأخرى، مسلكَ الكنيسة الجامعة. تجدر الإشارة إلى أن إظهارَ اللاهوت والروحانيّة الشرقيَّين اللذَين يُعتبران جزءاً لا يتجزّأ من تراث الكنيسة الجامعة، وكذلك اعتلانَ أهميّةِ الخصائصِ التنظيميّة، هما، في المقابل، اكتشافٌ حديث.

يُخشى أن يَقتصرَ القيامُ بالليترجيّا الإلهيّة على مظاهرٍ محضُ خارجيّة اذا لم ينتهِ إليها، كإلى تعبيرٍ أسمى، تراثُ كنيستها الكامل.

١٤. سموُّ الليترجيّا

يحتلُّ الميدانُ الليترجيّ بأكمله في الكنيسة، منذ الأوائل، مكانةً مركزيّةً مطلقة: فالشعورُ الحادُّ أنَّ كلَّ حياة الإيمان الجديدة تبلغ أوجَها في فعل العبادة العظيم الذي يقوم به المسيحُ والكنيسةُ المتّحدةُ بالمسيح، هو، في الواقع، عنصرٌ أساسيٌّ يتواتر منذ عهد الرسل.

«إن الليترجيَّا المقدَّسة، المكانَ الذي فيه يؤدّى السجود والحمد، وحيث تتجلّى الشركة والأخوّة بين المؤمنين، هي المربّية الحقيقيّة للحياة المسيحيّة والمُجمل (synthèse) الأكملُ لمظاهرها المتنوّعة»[٢٠]. فالليترجيّا هي، في الواقع، «القمّة والمنبع»[٢١] للحياة المسيحيّة، وتعبّر عنها كما في مُجمل؛ إنّها تذكّر بسرّ المسيح والكنيسة وتؤوّنه، وتعرضه لتأمل المؤمنين وتنشده رافعة الشكر للربّ، «لأن محبّته أزليّةٌ».

[٢٠] يوحنا بولس الثاني، خطاب أمام المشاركين في لقاءٍ حول القضايا الراعويّة في كنيسة رومانيا، حسب الطقس البيزنطيّ (٢٢ كانون الثاني ١٩٩٤): **الأوسرفاتوري رومانو**، ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٤، ص ٥؛ راجع أيضاً ...Servizio، ٤٩ (١٩٩٤)، ٢.

[٢١] **«الليترجيّا المقدّسة»**، ١٠.

١٥. تفوّق الليترجيّا الخاصُّ في الكنائس الشرقيّة

إن رفعة شأن التراث الليترجيّ هي أعظم في الكنائس الشرقيّة. فلقد حافظت بنوعٍ خاصٍّ على أوليّة الليترجيّا بمثابة قمّة الحياة المسيحيّة، باقيةً بذلك أمينةً بالكليّة لروح كنيسة الآباء، في وقتٍ كانت فيه الليترجيّا المكانَ الذي يتركّز فيه التعليمُ المسيحيّ والتعليم الدينيّ: فالكتابُ المقدّسُ كان يُعلَن ويُشرح. وإعدادُ الموعوظين للمعموديّة، والتائبين للمصالحة، خلال الفترة التحضيريّة لعيد الفصح، كان يتمّ في مجملٍ كاملٍ من التعاليم والرموز؛ ورتبة الخدمة (الذياكونيّا) نفسُها كانت تجد لها مكاناً. كلُّ حياة الكنيسة، إذن، كانت شبهَ مختصرةٍ في الليترجيّا. وحتى اليوم تستلهم الكنائسُ الشرقيّة هذا المثالَ الذي يشكّل قوّتها. ومن هذا المثال عينه يجب أن تُستوحى بالأخص إعادةُ تقويم طريقةِ تعليم الأسرار لتنشئة المؤمنين: من الليترجيّا التي تُفهَم وتُستَوعب يَنشأُ تطوّرُ الحياة في المسيح.

ويتمُّ التأملُ والمشاركة في الأسرار الإلهيّة من خلال أساليبِ تعبيرٍ هي أيضاً أوضاعٌ روحانيّة: التمجيدُ الذي هو تسبيحٌ وعبادةٌ مجانيّةٌ تمجّد الربَّ «العجيبَ في قدّيسيه» (مز ٦٧|٦٨|، ٣٦ حسب السبعينيّة)؛ وذكرانيّةُ عجائب تدبير الخلاص والشكرُ الذي ينجمُ عنها طوعاً؛ والإبيكليس، أي

[illegible] الروح الذي يضمّ جميع حقائق الكنيسة والملكوت؛ وأخيراً [لاهوت] النفي الذي هو نعتٌ شرقيٌّ خاصٌّ نعبّر عن معنى عدم الأهليّة وعن المحدوديّة تجاه عدم إمكان التعبير عن الحقائق الإلهيّة التي تظهر للبشر وكأنها «السرُّ الرهيب»، نحيط به غشاءَ الخوف، والشعورُ بعدم المساواة، والشعور إذن بعبادة متواضعة. كلُّ ذلك يعبّر عنه بالعديد من أساليب التعبير الباقي، وأيضاً بما يُحاط به من احترامٍ قدسُ الأقداس المعزولُ والمحجوب.

صلاة الكنائس الشرقيّة شديدة الجماعيّة: فليترجيّاها تستدعي المؤمنين لا إلى البحث بالقرب من الربّ عن ملاذ وحمايةٍ فقط، بل أيضاً إلى الاتّحاد بقطيعه[22]، ومن ثمّ إلى الانخراط في الجماعة، إلى القيام فيها بدورٍ فعّال، وفقاً لرتبة كلِّ أحد، إلى الشعور بحضورِ ملءِ شركة القدّيسين، الذين يُدعون هم أيضاً إلى نشيد الحمد والدعاء.

وعلاوةً على ذلك، تبقى الحياة الليترجيّة، على الإطلاق، في وسط الاهتمامات الكنسيّة، وتعبّر عن الإيمان ومحتواه، وفي الوقت عينه تسيّر حياة المؤمنين الروحيّة. ولقد ظهر ذلك جليّاً بالأخصّ عندما اضطهدت أنظمةٌ طاغيةٌ

[22] صلاة قبول موعوظ في التقليد البيزنطيّ.

العديدَ من الكنائس الشرقيّة فصمدت في وجه الطغيان وحتى تشدّدت بالرغم من أنها اضطُرّت إلى تقليص مدى عملها الروحانيّ والراعويّ الخاصّ، مكتفيةً فقط بالاحتفال الليترجيّ، الذي استقى منه الشعب، نوعاً ما، جوهرَ إيمانه المحيي.

١٦. التراث الليترجيّ في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكية منبعاً للهويّة

بالرغم من أن وطأة التقليد الغربيّ قد أثّرت على الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، إلاّ أنها حافظت، في الليترجيّا، على توافقٍ أكثر أمانةً وتقاليدَها الأصيلة. فإذا ما أُعيدت ليترجيّاتُ تلك الكنائس إلى أصالةٍ وحيويّةٍ أعظم، بحذف كلّ ما شوّهَها، يمكن أن يشكّل ذلك أحسنَ نقطةِ انطلاقٍ نحو تنميةٍ لخصوصيّاتها. فتُنهل منها أقوالٌ وأفعالٌ قادرةٌ على أن تحرّكَ قلوبَ مؤمنيها وتنير أذهانَهم في الوقت الحاضر.

ولسوفَ تأتي المحافظةُ على الثروات الليترجيّة بثمارٍ أوفرَ ليسَ فقط بإجراءات السلطة الكنسيّة التنظيميّة، بل أيضاً بانضمام الشعب المسيحيّ العفويّ والأمين، وقد ثقّفه رعاتُه بما يلزم. وبنوعٍ خاصٍّ، يجب التذكيرُ بما هنالك من أهميّة، في أيّامنا، بأن يكون الرعاة، حتى في هذا الميدان، أمثلةً صالحةً للقطيع، كي يحافظ هو أيضاً على أمانته التقليديّة. ومن الأهميّة بمكانٍ أيضاً ما نتمنّاه من حضورِ جماعاتٍ رهبانيّةٍ حيّةٍ تتنبّه

لتقدير وتقديم الثروات اللامحدودة التي يتحلّى به تراثُ التقليد الموروث الخاصّ بكلٍّ من الكنائس: «هناك في الواقع رباطٌ ضمنيٌّ وجوهريّ بين الصلاة الليترجيّة والتقليد الروحانيّ والحياة الرهبانيّة في الشرق. لذلك بالضبط، فإن عودةً إلى الحياة الرهبانيّة ملائمةَ التنظيم ومبرَّرةَ الأسباب يمكنها أن تعود على الجميع بالخير وتقود إلى ازدهارٍ كنسيٍّ حقيقيّ. ولا يُظنّنَّ أن في ذلك انتقاصاً لفعّالية الخدمة الراعويّة، بل على العكسِ من ذلك سيدعمها مثلُ هذه الروحانيّة الناشطة فتستعيدَ مكانتها الفضلى»[٢٣].

١٧. أهميّة التقليد في الليترجيّا

مثلُ هذا التراث من الإيمان ينقلُه التقليدُ الذي يضمن استمراريّته وأصالتَه على مدى العصور، منذ القدَم ولربّما منذ شهادة الرسل. هذا الإيمان يُقبل بقلبٍ منفتح، ويحافَظُ عليه، ويُتناقَل، ويُعلَّم، ويُثبَّت ويشرحُه الروحُ القدس. إنه وديعةٌ إلهيّة لا تُمسّ، تفسيرُها حَيويٌّ، وتعمَلُ في تبادلٍ أخويّ مع الكنائس الأخرى، تبادلٍ عليه ترتكزُ جامعيّتُها في التنوّع والتكيّف. وإذا ما طُبّق التقليدُ على الليترجيّا أظهر في الكنائس الشرقيّة حيويّةً عجيبةً: فصلاةُ الكنيسة سلكت سبيلاً دائماً

[٢٣] «نور الشرق»، ٢٧: أ ك ر ٨٧، ص ٧٧٣.

خاصّاً بها، يرتكز بطريقةٍ غير محسوسة على أساس ذلك التقليد الحيّ أكثرَ منه على أساس الإصلاحات الآتية من علُ.

١٨. الإصلاحُ والتجدّدُ الليترجيّ

أولُ ما يتوجّبُ لكلّ تجدّد ليترجيٍّ شرقيّ، كما حصل ذلك أيضاً للإصلاح الليترجيّ في الغرب، يكمنُ في إعادة اكتشاف الأمانةِ الكاملةِ للتقاليدِ الليترجيّة الخاصّة، فيُنتفَعُ من ثرائها ويُلغى ما أمكنه تشويهَ أصالتها. مثلُ هذا الاهتمام ليس عَرضيّاً بل يجب أن يسبق ما يسمّى «التجديد». إنه لواجبٌ دقيقٌ يُفترض التعاملُ معه بفطنةٍ، منعاً لإرباك الأذهان، وأن يُتابَع بتناسقٍ ومثابرة، إذا ما أرادت الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة أن تبقى أمينةً لما اؤتمنت عليه. وبهذا الشأن يُوضحُ أيضاً يوحنا بولسُ الثاني، قائلاً: «إذا ما اضطُررتم إلى إسقاط أشكالٍ وتوسّعاتٍ نافلة، نجمت عن تأثيراتٍ مختلفة صادرةٍ عن تقاليدَ ليترجيّةٍ وأخرى خارجةٍ عن الليترجيّا وغريبةٍ عن تقليدكم، فمن الممكن بفعلكم هذا أن تُضطرّوا أيضاً إلى تصحيحِ بعضِ العوائدِ الشعبيّة»[٢٤].

[٢٤] يوحنا بولس الثاني، خطاب أمام المشاركين في سينودس البطاركيّة الأرمنيّة الكاثوليكيّة (٢٦ آب ١٩٨٩): **الأوسّرفاتوري رومانو**، ٢٧ آب ١٩٨٩؛ راجع أيضاً: ...Servizio، ملحق الأعداد ٤٨٥-٤٨٦، ص ٤٢.

لتقدير وتقديم الثروات اللامحدودة التي يتحلّى به تراثُ التقليد الموروث الخاصّ بكلٍّ من الكنائس: «هناك في الواقع رباطٌ ضمنيٌّ وجوهريّ بين الصلاة الليترجيّة والتقليد الروحانيّ والحياة الرهبانيّة في الشرق. لذلك بالضبط، فإن عودةً إلى الحياة الرهبانيّة ملائمةَ التنظيم ومبرَّرةَ الأسباب يمكنها أن تعود على الجميع بالخير وتقود إلى ازدهارٍ كنسيٍّ حقيقيّ. ولا يُظنّنَّ أن في ذلك انتقاصاً لفعّالية الخدمة الراعويّة، بل على العكسِ من ذلك سيدعمها مثلُ هذه الروحانيّة الناشطة فتستعيدَ مكانتها الفضلى»[٢٣].

١٧. أهميّة التقليد في الليترجيّا

مثلُ هذا التراث من الإيمان ينقلُه التقليدُ الذي يضمن استمراريّته وأصالتَه على مدى العصور، منذ القدَم ولربّما منذ شهادة الرسل. هذا الإيمان يُقبل بقلبٍ منفتح، ويحافَظُ عليه، ويُتناقَل، ويُعلَّم، ويُثبَّت ويشرحُه الروحُ القدس. إنه وديعةٌ إلهيّة لا تُمسّ، تفسيرُها حَيويٌّ، وتعمَلُ في تبادلٍ أخويّ مع الكنائس الأخرى، تبادلٍ عليه ترتكزُ جامعيّتُها في التنوّع والتكيّف. وإذا ما طُبّق التقليدُ على الليترجيّا أظهر في الكنائس الشرقيّة حيويّةً عجيبةً: فصلاةُ الكنيسة سلكت سبيلاً دائماً

[٢٣] «**نور الشرق**»، ٢٧: أ ك ر ٨٧، ص ٧٧٣.

حاصّاً بها، يرتكز بطريقةٍ غير محسوسة على أساس ذلك التقليد الحيّ أكثرَ منه على أساس الإصلاحات الآتية من علُ.

١٨. الإصلاحُ والتجدّدُ الليترجيّ

أولُ ما يتوجّبُ لكلّ تجدّد ليترجيٍّ شرقيّ، كما حصل ذلك أيضاً للإصلاح الليترجيّ في الغرب، يكمنُ في إعادة اكتشاف الأمانةِ الكاملةِ للتقاليدِ الليترجيّة الخاصّة، فيُنتفَعُ من ثرائِها ويُلغى ما أمكنه تشويهَ أصالتها. مثلُ هذا الاهتمام ليس عَرضيّاً بل يجب أن يسبق ما يسمّى «التجديد». إنه لواجبٌ دقيقٌ يُفترض التعاملُ معه بفطنةٍ، منعاً لإرباك الأذهان، وأن يُتابَع بتناسقٍ ومثابرة، إذا ما أرادت الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة أن تبقى أمينةً لما اؤتمنت عليه. وبهذا الشأن يُوضحُ أيضاً يوحنا بولسُ الثاني، قائلاً: «إذا ما اضطُررتم إلى إسقاط أشكالٍ وتوسّعاتٍ نافلة، نجمت عن تأثيراتٍ مختلفة صادرةٍ عن تقاليدَ ليترجيّةٍ وأخرى خارجةٍ عن الليترجيّا وغريبةٍ عن تقليدكم، فمن الممكن بفعلكم هذا أن تُضطرّوا أيضاً إلى تصحيحِ بعضِ العوائدِ الشعبيّة»[٢٤].

[٢٤] يوحنا بولس الثاني، خطاب أمام المشاركين في سينودس البطاركيّة الأرمنيّة الكاثوليكيّة (٢٦ آب ١٩٨٩): **الأوسرفاتوري رومانو**، ٢٧ آب ١٩٨٩؛ راجع أيضاً: Servizio...، ملحق الأعداد ٤٨٥-٤٥٦، ص ٤٢.

نشهد اليوم تفجّر ذهنيّة تسعى إلى المبالغة في تقدير الفعّاليّة والتحرّك الزائد والنتاج الصادر عن الجهد الزهيد وبدون الالتزام الشخصيّ العميق. يمكن ذلك أن يؤثّر سلبًا في التعاطي مع الليترجيّا، حتّى في الشرق. لأنّ الليترجيّا، بالعكس، ما زالت مدرسةً صارمة، تتطلّب استيعابًا تدريجيًّا، مُتعبًا لا يمكن البلوغ تمامًا إلى نهايته. على هذا الصعيد تبدو الجماعاتُ الرهبانيّةُ الأفضلُ تحسّسًا، فيمكنها أن تقدّم بالتالي إسهامًا مهمًّا في تفهّم التراث الليترجيّ أحسن تفهّم وفي تقدّمه. فمن المناسب إذن أن ينخرط في هذه المسؤوليّة المشتركة، حيث يُمكن ذلك، جماعاتٌ رهبانيّةٌ للرجال والنساء، منتميةٌ إلى التقليد عينه.

لا تقلّصُ هذه العباراتُ البتّةَ الضرورةَ العادلةَ بالتعبير عن الإنجيل، بقدر الإمكان، تعبيرًا بسيطًا وواضحًا لإنسان اليوم. كلُّ تعبيرٍ إذن يتطلّب سهرًا دائمًا كي يُحافَظ عليه حيًّا بنفحةٍ من الروح. لكن التقليد، وكذلك حرفيّته، كما هو معهودٌ للكتاب المقدّس، يحتوي على كنوز لا يمكن التخلّي عنها: فيجب تقبّلُ قدرات التقليد واستيعابُها واستخدامُها في نقل سرّ الله الأمضى من سيفٍ ذي حدّين ينفذ حتى مفرق النفس والروح (عب ٤: ١٢). إن الترداد الدائم لهذه الأقوال

في الليترجيّا يجب ألاّ ينتزع شيئًا من قدرها ولا يمسّ أوّليّة واقعيّتها.

١٩. دراسةٌ وتعمّقٌ يسبقان كلّ تبديل

لا بدّ من التذكير بالتوصية التي وردت في الرقم ٢٣ من القرار المجمعيّ «الليترجيّا المقدّسة»:

«لأجل الحفاظ على التقليد الصالح، وأن يُفتح مع ذلك البابُ لتطورٍ شرعيّ، في كلّ قسم من أقسام الليترجيّا التي تحتاج إلى إعادة نظر، يجب افتتاح العمل دائمًا بدراسة لاهوتيّة وتاريخيّة وراعويّة دقيقة». وإن ذلك هو الإصلاح الليترجيّ نفسه الذي أراده المجمع الفاتيكاني الثاني قد أمكن تحقيقه لأنّ سبقته ثم تبعته بفعّاليّة اختباراتٌ طويلة، ودراساتٌ مكثّفةٌ تاريخيّة وناقدةٌ للنصّ، وأخرى لاهوتيّة وكتابيّة وراعويّة كلّلت جميعُها عمل العديد من الباحثين واللجان، سواء على الصعيد المحليّ أم على الصعيد الدوليّ. من دون ذلك كلّه، لما كنّا حصلنا لا على الروابط ولا على المراجع والحيثيّات الصحيحة الضروريّة لأيّ عمل مستوفٍ للشروط.

٢٠. المقاييس الصالحة للتجدّد الليترجيّ

عند تبديل ممارسة ليترجيّة قديمة، يجب التساؤل هل العنصر المنوي إقحامه يتناسق ومعنى الإطار الموضوع فيه. يجب

أن يُفهم الإطارُ المعيَّن انطلاقاً من مراجعَ ممكنةٍ إلى الكتاب المقدَّس، وانطلاقاً من تفسيرِ الآباء القدّيسين، والإصلاحاتِ الليترجيّة التي سبق اعتمادها، والتعليم المسيحيّ في تلقين الأسرار. يجب أن نتساءَل أيضاً هل التحديدُ هذا يتوافق والتعبيرَ الرمزيَّ، والصوَر والأسلوبَ الخاصَّ بليترجيَّا تلك الكنيسة. يُمكن أن يُقبل العنصرُ الجديدُ إذا وُضع، عندما تفرضه تعليلاتٌ راعويّة جدّيّة، في قلب الاحتفال، دون أن يسبّب تبايناً، ولكن يُدرج بانسجام معه وكأنه ينجم عنه طبيعيّاً. وفوق ذلك يجب التحقّقُ من سابقِ وجوده، لربّما تحت شكلٍ أو آخر، في موقع ثانٍ من الاحتفال، أو في جزءٍ آخر من «المجموعة الليترجيّة» الخاصة بتلك الكنيسة.

على كلّ مبادرةٍ تجديدٍ أن تسهر على ألاّ تنقادَ فتكيّفها مناهجُ أخرى تكون لربّما أنجعَ ظاهريّاً. إلى ذلك تعود إرشاداتُ يوحنا بولس الثاني النابضة حيويّةً والمتكرّرة، التي وجّهها حيناً بعد حين إلى مؤمني مختلف الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة: «لا تنقادوا بارتجالٍ مفرطٍ إلى محاكاة ثقافات أو تقاليدَ ليست لكم، خائنين هكذا الشعورَ الخاصَّ بشعبكم. (...) هذا يعني أنه من الضروريّ أن يرتكز كلُّ تكيّفٍ جديدٍ لليترجيّاتكم على دراسةٍ رصينةٍ للأصول، وعلى معرفةٍ

واقعيّةٍ لمميّزات الخاصّة بتقافتكم، وعلى المحافظة على التقاليد المشتركة لدى كلّ المسيحيّة القبطيّة»[٢٥].

٢١. قيمة التراث الليترجيّ المشترك المسكونيّة

من بين المهمّات الخطيرة التي اؤتمنت عليها بالأخص الكنائسُ الشرقيّةُ الكاثوليكيّة، يُشير القرارُ المجمعيّ «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**»[٢٦]، و«**م.ق.ك.ش.**» (ق ٩٠٣)، و«**الدليلُ المسكونيّ...**» (الرقم ٣٩) إلى ضرورة تعزيز الوحدة مع الكنائس الشرقيّة التي لم تعقد بعدُ شركةً كاملةً مع كرسيّ بطرس، ويحدّد الشروطَ الضروريّة، وهي: أمانةٌ دينيّةٌ تجاه التقاليد القديمة الخاصّةِ بالكنائس الشرقيّة، معرفةٌ متبادلةٌ فضلى، تعاونٌ وتقديرٌ أخويٌّ للوقائع والقلوب. تلكم مبادىءُ هامّةٌ لتوجيه الحياة الكنسيّة لدى كلّ جماعةٍ شرقيّة كاثوليكيّة خاصّة، ولها قيمةٌ رفيعةٌ في ميدان احتفالات العبادة الإلهيّة، لأن، بالحقيقة، في هذا الميدان حافظت الكنائسُ الشرقيّة، الكاثوليكيّةُ منها والأرثوذكسيّة، على التراث نفسه، على أكمل وجه.

[٢٥] يوحنا بولس الثاني، عظة في أثناء صلاة البخور بحسب الطقس الإسكندريّ القبطيّ (١٤ آب ١٩٨٨): **الأوسرفاتوري رومانو** (١٦-١٧ آب ١٩٨٨)، ص ٥؛ راجع أيضاً: Servizio...، ملحق الأعداد ٤٨٥-٥٥٦، ص ٢٤

[٢٦] **المرجع نفسه** الوارد في الحاشية ذات الرقم (٢٠).

في كلّ جهدٍ للتجدّد الليترجيّ، يجب إذن الأخذ بعين الاعتبار ممارسة الإخوة الأرثوذكس، بالتعرّف عليها، بتقديرها، بالابتعاد أقلّ ما يمكن عنها، خوفاً من توسيع شقّة الخلافات القائمة وبانتظار تكيّفات مرتقبةٍ، علينا إنضاجها وتحقيقُها سويّةً. هكذا تظهر الوحدة، وهي الآن قائمة، متقبّلةً كلَّ يوم التيّارَ الروحيَّ عينَه الصادرَ من ممارسة التراث المشترك.

الفصل الرابع

صلاحيّاتُ التشريع الليترجيِّ ومكوّناته

٢٢. صلاحيّات لتنظيم العبادة

يحدّد القانون ٦٦٨، البند ٢ من «**م.ق.ك.ش.**»، استناداً إلى القانون ٦٥٧، السلطة الصالحة لتنظيم العبادة الإلهيّة العموميّة. ففي الكنائس البطريركيّة، السلطة هي البطريرك مع موافقة سينودس الأساقفة (الذي بدوره يلجأ إلى تعاونِ لجنةِ الكنيسة البطريركيّة)[٢٧]. تجدر الإشارة إلى أنّ ما يُسنُّ بشأن الكنائس البطريركيّة، يفرضه القانون ١٥٢ من «**م.ق.ك.ش.**»، على كنائس رئاسات الأسقفيّة العليا. وفي الكنائس المتروبوليتيّة ذات الشرع الخاصّ، تعود صلاحيّة السلطة إلى المتروبوليت مع موافقة مجلس الرؤساء الكنسيّين. وفي كلا الحالتين، يعود إلى الكرسيّ الرسوليّ إعادة النظر المسبَقة؛ أما في كلّ الكنائس الأخرى، فالسلطة الصالحةُ الوحيدةُ هي الكرسيُّ الرسوليّ، ضمنَ الحدود التي وضعها الكرسيّ نفسه، والأساقفةُ والمجامعُ القائمةُ شرعاً (ق ٦٥٧،

[٢٧] **م.ق.ك.ش.**، ق ١١٤، البند ١؛ ق ١٢٤.

البند ١). وتحدّد قوانين أخرى من «**م.ق.ك.ش.**» إطارَ النظُم المشترَكة التي ترعى مجملَ الحياة الليترجيّة في الكنائس الشرقيّة.

٢٣. دور الأسقف

إن تنظيمَ الأدوارِ الليترجيّة، المنوطَ بالسلطة الكنسيّة، يتحقّق في التشريع الخاص بالقانون ١٩٩، البند ١ من «**م.ق.ك.ش.**»، حيث يُظهَر دورُ «الأسقف الأبرشي، بكونه رئيساً ومنشّطاً وحارساً للحياة الليترجيّة بأجمعها في الأبرشيّة». وفي قوانين أخرى، يُطلب مثلُ هذا الالتزام من معاونيه: المتقدّمين في الكهنة (ق ٢٧٨، البند ١)، والخورانة (ق ٢٨٩، البند ٢)، ومدراءِ الكنائس (ق ٣٠٩).

يقوم دورُ الأسقف بالسهر على أن «تعزَّز الحياةُ الليترجيّة أشدَّ تعزيز، وأن تنظَّم بحسب رسوم كنيسته ذاتِ الشرعِ الخاصّ وعوائدها المشروعة» (ق ١٩٩، البند ١). فالأسقف إذن لا يتصرّف على أساس حكمه الذاتيّ أو العوائد المحليّة، ولكن يرجع إلى التراث العائد إلى الكنيسة ذاتِ الشرع الخاصّ. وبذلك تصبح سلطةُ كلّ أسقف مشاركةً في سلطةٍ أعظم تسوس الحياةَ الليترجيّةَ التي تعود إلى الكنيسة ذاتِ الشرع الخاصّ.

على الأسقف، لدى اضطلاعه بدوره كمنسّق للحياة الليترجيّة، ألاّ يتصرّف استبداداً، أو يكفل تصرّف جماعات أو فئات. ولكن عليه، بالاتحاد مع إكليرُسه، أن يكون حارساً متنبّهاً لذاك الضمير الليترجيّ الحاضرِ والعاملِ في الذهن الحيّ لشعب الله الموكولةِ رعايتُه إليه. وكما أن شعورَ المؤمنين جازمٌ في فهم عقيدة الإيمان كذلك هو أيضاً في الحفاظ على الاحتفال بالإيمان. وعلى الشعب، من جهته، أن يكون أميناً لإرشادات الراعي، مجتهداً في فهمها بعمقٍ وفي تنفيذِها. ولتُنشأْ لجانٌ أبرشيّةٌ من أخصّائيّين يعملون على تنشيط فهمٍ أفضلَ لليترجيّا والاحتفالِ بها. ولسوف يُضفي حضورُ جماعاتٍ حقيقيّةٍ من رهبانٍ وراهباتٍ شرقيّين أهميّةً كبرى على مسيرة نُضجِ شعب الله الليترجيّ. لتعِش تلك الجماعاتُ بالكمال السرَّ الذي فيها، والمحتفَلَ به يوميّاً في الإيمان، بنعمة الروح.

٢٤. دورُ الكرسيّ الرسوليّ

أراد الكرسيُّ الرسوليّ أن يلعب دوراً هاماً في الحفاظ على الممارسة الليترجيّة في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة وتطوّرها المتناسق. ولقد تمّ ذلك بالعديد من الطرق أدّت تدريجيّاً إلى نشاط اللجنة لتصحيح كتب الكنيسة الشرقيّة الليترجيّة، تلك اللجنة التي أُنشئَت العام ١٧١٧، وعملت

داخلَ «مجمع نشر الإيمان» حتى العام ١٨٦٢. كانت تحمل المداخلاتُ بصمةَ ذهنيّاتٍ خاصّةٍ بذاك الوقت، يُدرَكُ منها نوعاً من إخضاع الليترجيّات غير اللاتينيّة للّيترجيّا بحسب الطقس اللاتينيّ الذي كان يُعتبر «الطَقسَ الأسمى». فتسبّب ذلك بمداخلاتٍ في النصوص الليترجيّة الشرقيّة تقتضي اليوم، على ضوء الدراسات والمسيرة اللاهوتيّة، إعادةَ نظرٍ في اتّجاه العودة إلى التقاليد القديمة[٢٨]. ولقد نجح عملُ اللجان، مع ذلك، بلجوئه إلى أفضل خبراءِ ذلك العصر، في الحفاظ على جزءٍ كبيرٍ من التراث الشرقيّ، بالذّود عنه ضدَّ مبادراتٍ غايةٍ في الإجحاف، وبإصداره طبعاتٍ ثمينةً من نصوصٍ ليترجيّةٍ للعديد من الكنائس الشرقيّة. واليوم، بالأخصّ، بعد التصريحات الرسميّة الواردة في رسالة البابا لاون الثالث عشر «**كرامة الشرقيّين**»؛ وبعد إنشاء «لجنة خاصّة لليترجيّا» في إطار مجمع الكنائس الشرقيّة، العام ١٩٣١، والتي ما زالت تعمل؛ وخصوصاً بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني ورسالة البابا يوحنا بولس الثاني «**نور الشرق**» الرسوليّة، بات احترامُ الليترجيّات الشرقيّة موقفاً لا يقبلُ الجدَل، وأمكن الكرسيُّ الرسوليُّ أن يقدّم للكنائس خدمةً أكثرَ ملاءَمةً.

[٢٨] القرار المجمعيّ «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**»، ٦.

إذا ما كانت، في الغالب، عنايةُ الكرسيّ الرسوليّ بحياة الكنائس الشرقيّة الليترجيّة، قد ظهرت في الماضي ميمونةً، فهي ما زالت لا يُستغنى عنها في الأوضاع الواهنة التي يتخبّط فيها، حتى في أيامنا، العديدُ من الكنائس الشرقيّة. إن أهميّة الكرسيّ الرسوليّ الذي يجسّد الخلاص، **هنا وفي الوقت الراهن**؛ وموقعَه كمكانٍ مفضَّل يحافظ على **وديعة الإيمان** ويعبّر عنها، يبرّران وظيفةَ الحفاظ والرعاية التي لا يزال يؤدّيها بشأن ممارسة الليترجيّا الشرقيّة؛ فالمقصودُ هو الحفاظُ على الإيمان والذّودُ عنه في أحد أهمّ تعابيره. حملَ مثلُ هذا الاقتناع على سنِّ القانون ٦٥٧، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» الذي يحصُر الموافقةَ على النصوص الليترجيّة بالكرسيّ الرسوليّ في الكنائس غير البطريركيّة وغير المتروبوليتيّة ذات الشرع الخاصّ، ويطلب مراجعةً مسبقةً من قِبَله في ما يخصّ الكنائس البطريركيّة والمتروبوليتيّة. إن مثل هذه المراجعة تعني بالطبع كلَّ ما يتعلّق بالاحتفالات الليترجيّة.

٢٥. صلاحيّاتٌ للموافقة على ترجمات الكتب الليترجيّة

على مرّ العصور، سبّبت ظروفٌ مختلفةٌ تبديلاتٍ هامّةً في الميدان اللغويّ. في المناطق الشرقيّةِ نفسها تبدّلت اللغاتُ – الأمُّ ببطءٍ ولكن بعمقٍ، وفي بعض الأحيان اضمحلّت أو استعيض عنها بأخرى. وأحياناً، غادر العديدُ من مؤمني

الكنائس الشرقيّة بلداهم - الأمّ واستقرّوا في بلدان إلى جانب مسيحيّين نشأوا على ثقافات أخرى؛ ومع الوقت، اندمجوا في الإطار الثقافيّ الخاصّ بالمنطقة التي نزلوا فيها. وغالباً ما فقدوا معرفة لغاتهم الأصليّة واستخدامَها؛ فنجَمَت عن ذلك صعوبةٌ كبرى للاشتراك في ليترجيّا كنيستهم الخاصّة. ومن ثمّ، ومنذ غابر الأزمان، غالباً ما أخذت الكنائسُ الشرقيّة على عاتقها، كي تتدارك تلك الصعوبة، ترجمةَ نصوصها الليترجيّة بلغاتٍ قريبةِ المنال إلى أذهان الشعب.

يحدّد القانون ٦٥٧، البند ٢ من «م.ق.ك.ش.» أن حقّ الموافقة على ترجمات الكتب الليترجيّة يعود إلى السلطات صاحبة الصلاحيّة المخوَّلة الموافقةَ على الكتب الليترجيّة، بعد أن ترفع عنها تقريراً إلى الكرسيّ الرسوليّ، إذا كان الأمرُ يتعلّق بالكنائس البطريركيّة والمتروبوليتيّة ذاتِ الشرعِ الخاصّ.

إنّ تزايدَ عدد الأبرشيّاتِ أو الكنائسِ ذاتِ الشرعِ الخاصّ المنتميةِ إلى أسرةٍ ليترجيّةٍ واحدةٍ والتي تستخدم أحياناً في المنطقةِ الواحدةِ اللغةَ عينَها، يستوجب طبعاً استخدامَ ترجماتٍ موحَّدة. ومن المناسب أن تتّفق السلطاتُ المختصّة في ما بينها للبلوغِ إلى هذا الهدف.

٢٦. مكوّناتُ الشرع الليترجيّ

استناداً إلى الشرع الليترجيّ، يُرجعُ القانون ٣ من «م.ق.ك.ش.» إلى ما ترسمُه الكتبُ الليترجيّة. وإلى جانب هذه الأحكام، تذكر «م.ق.ك.ش.» نظُماً أخرى ذاتَ طابعٍ ليترجيّ تصدُر عن السلطة المختصّة في الكنائس ذاتِ الشرع الخاصّ، لم تُدرج في الكتب الليترجيّة، من مثل القواعد (ق ٦٨٧)، وأحكام الكنائس ذاتِ الشرع الخاصّ (ق. ١٩٩)، الواردةِ في الشرع العامّ وفي الشرع الخاصّ، والتي اتّسمت بسلطان القانون. في ما يخصّ هذه الأخيرة، يشدّد القانون ٣ من «م.ق.ك.ش.» على وجوب الحفاظ عليها بدقّة.

٢٧. تعقّد الشرع الليترجيّ الخاص

من الضروريّ، بغيةَ تفسيرٍ عاقلٍ وواقعيٍّ للأحكام أو الرسوم الخاصّة، أن يؤخذ بعين الاعتبار أنها لا تشكّل دائماً مجموعةً كاملةَ التجانس، وذلك دون المسّ بمجمل البنية المدرجة فيها. فهناك نظمٌ مختلفة، سواءٌ أكانت في الكتب الليترجيّة أم في غيرها، قد تنوّعت لتتوافقَ ومتطلّباتٍ تميّز أوساطاً أو ظروفاً خاصّة. فنجم عن ذلك، إزاءَ أحوالٍ متنوّعة، تطوّرُ توجيهاتٍ مختلفةٍ أو حتى متناقضة. فيجب ثمّةَ على السلطات المخوَّلة الصلاحيّات، إذا ما أرادت أن تعيد

إحياء الليترجيّا، أن تتفحّص بدقّةٍ تلك الرسوم، على ضوء المبادىء العامة المذكورة أعلاه، مع الحفاظ ماثلاً أمام الأذهان التناسقُ والتقاليدَ الأصيلة والمتطلّبات الجديدة للواقع الراهن. إنها لمهمّةٌ دقيقةٌ تقتضي تشجيعاً في البحوث والدراسات، يمكنها أن تقود إلى اكتشاف المعاني اللاهوتيّة وكذلك الراعويّة.

٢٨. العُرف

يؤكد القانون ١٥٠٨ من «م.ق.ك.ش.» وكذلك القانون ٢٧ من «الحقّ القانونيّ» أن العُرف هو أفضلُ مفسِّرٍ للقوانين، فيما القانونان ١٥٠٧ و ١٥٠٩ يفسّران قواعد استخدامه. وفقاً لما يحدّده القانون ١٥٠٧، العُرف هو ثمرة الممارسة المستمرّة والهادئة للجماعات المحليّة؛ وهو ثمينٌ لأنه متأصّلٌ في حياة الشعب. وفي هذا الصدَد أيضاً، من الضروريّ أن نُعمل في الأمر تمييزاً عاقلاً للحفاظ على ما هو أفضلُ وأنجعُ لازدهارٍ مسيحيٍّ حقيقيّ، وللتدخّل بغية إسقاط النافل أو ما لا يتلاءم والتقاليدَ الأصيلة الخاصّة.

٢٩. الكتبُ الليترجيّة والروحُ المسكونيّة

يؤكد القانون ٦٥٦، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» أن تُستخدَم وحدَها فقط، في الاحتفالات الليترجيّة، الكتبُ نالت

موافقةَ السلطة الكنسيّة. إنه لمبدأٌ واضحٌ يلاقي، مع ذلك، صعوباتٍ عمليّة. فهناك في الواقع، كنائسُ شرقيّةٌ كاثوليكيّةٌ تستقر إلى طبعةٍ خاصّةٍ للكتب الليترجيّة، أو على الأقلّ إلى بعضٍ منها. فتستخدم، بحكم الضرورة، الطبعات المماثلةَ التي تستخدمُها الكنائسُ الأرثوذكسيّة. وهي طبعاتٌ، أحياناً، جيّدةُ الإتقان موضوعيّاً. مثلُ ذلك الاستعمال يتمُّ تقليديّاً بموافقةٍ سنميّةٍ من الكرسيّ الرسوليّ والسلطات الكنسيّة المحليّة. بعد فحصٍ دقيقٍ للأمور كلّها، هذه الضرورة يمكن أن تتبيَّن عادةً ثمينةً، باعتبارها بادرةَ شركةٍ جزئيّةٍ، ولكن عميقةٍ ومتّسعة، قائمةٍ حتى اليوم بين الكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة المنفرّعة من أصلٍ مشترك؛ ويمكن أن تكون مصدراً حيّاً لاستعادة الشركة الكاملة. فضلاً عن ذلك، يقدّرُ الإخوة الأرثوذكس أحياناً ويستخدمون عدّة طبعاتٍ كتبٍ ليترجيّة موضوعةٍ في رومة. وعلى كلٍّ يجب تجنّبُ كلّ تفاضلٍ غير ضروريّ بين كتب الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة الليترجيّة وكتب الكنائس الأرثوذكسيّة. وبالعكس يُتَمَنّى أن تُصدَرَ، قدر الإمكان، طبعاتٌ مشتركة. ولقد صرّح البابا يوحنا بولس الثاني بمناسبة خطابٍ إلى كاثوليكيّي الكنائس الأرمنيّة، قال: «إني أتمنّى بكلّ جوارح قلبي أن تشكّلَ الدراسةُ المشتركةُ

لليترجيّا وتطبيقاتُها الضروريّة ميداناً مفضّلاً للتعاون بين الأرمن الكاثوليك والأرثوذكس»[٢٩].

مثلُ هذا التمنّي أعيدُ التذكيرُ به بعبارات أعمَّ في الرقم ١٨٧ من «الدليل المسكونيّ» الذي يوصي باستخدام النصوص الليترجيّة المشتركة مع كنائسَ أو جماعات كنسيّة أخرى، لأنه «عندما يصلّي مسيحيّون معاً، بصوتٍ واحد، فشهادتُهم المشتركة ترقى، ولا شكّ إلى السماوات، وتُسمَعُ أيضاً في الأرض».

٣٠. دليلُ التعليم الدينيّ والليترجيّا: التعليم الدينيّ وشرح أسرار الدين.

يتحدَّث القانون ٦٢١، البندان ١ و٢ من «م.ق.ك.ش.» عن دليل التعليم الدينيّ الذي يجب أن تضعه الكنائس البطريركيّة أو المتروبوليتيّة؛ ويطلب ذلك القانون أن تُراعى خصائصُ الكنائسُ الشرقيّة، بحيث تتجلّى في تقديم التعليم الدينيّ أهميّةُ الكتاب المقدّس والليترجيّا، بل التقاليدُ المعمولُ بها في الكنيسة ذات الشرعِ الخاصّ، بشأن علمِ الآباء، وسيَرِ القدّيسين وحتى فنِّ رسمِ الإيقونات نفسه.

[٢٩] يوحنا بولس الثاني، عظة في أثناء الليترجيّا الإلهيّ بحسب الطقس الأرمنيّ (٢١ تشرين الثاني ١٩٨٧)، ص ٦، راجع أيضاً في: ...Servizio، ملحق للأرقام ٤٨٥-٥٥٦، ص ٦.

ومن الواجب التذكيرُ بأنّه في الشرق، على غرار ما يوصى به اليوم حتى في كنيسة الغرب، لا يمكن فصلُ التعليم الدينيّ عن الليترجيّا، لأن منها يستقي إيحاءه، إذ إن الليترجيّا هي سرُّ المسيح يُحتفَلُ به فعلاً. تلك هي الطريقة التي انتهجها العديدُ من آباء الكنيسة لتثقيف المؤمنين. وهذه التنشئة عُبّر عنها بـ «التعليم الدينيّ» للموعوظين وبـ «شرح أسرار الدين» أو «التعليم الدينيّ الأسراريّ» للمطّلعين على الأسرار الإلهيّة.

بهذه الطريقة، يُرشَدُ المؤمنون على الدوام إلى فرح إعادة اكتشاف الكلمة، إلى موت ربّهم وقيامته من بين الأموات، إلى ذاك الذي أدخلهم إليه روحُ الآب. فمِن فَهمِ ما احتفلوا به ومن الاستيعاب الكامل له يستخلصون خطّةَ حياة؛ شرحُ أسرار الدّين إذن هو مضمون وجودهم المفتدى والمقدّس والذي هو في طور التأليه؛ وبصفته تلك، إنه أساسُ الروحانيّة والخُلقيّة. فتوصى إذن كلُّ كنيسة من الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة أن تأخذ مسيراتُ التعليم الدينيّ عمليّاً نقطةَ انطلاقِها من الاحتفالات الليترجيّة الخاصّة.

الفصل الخامس

الاحتفال الليترجيّ

إيقونة الكنيسة

٣١. الكنيسة جماعةٌ مصلّية

يصف سفرُ أعمال الرسل حياةَ المسيحيّين الأوّلين بقوله: «كانوا مواظبين على تعليم الرسل والشَّركة وكسر الخبز والصلوات (...). وكان جميعُ المؤمنين يعيشون معاً؛ وكان كلُّ شيءٍ مشتركاً في ما بينهم (...)، وكانوا كلّ يومٍ، يلازمون الهيكل بنفس واحدة» (٢: ٤٢، ٤٤، ٤٦). إنّنا نرى في ذلك الخطوطَ المميِّزة للعبادة الليترجيّة الموجَّهة نحو الإصغاء إلى كلام الله يُعلنه الرسل، ونحو إنشاد التسابيح الإلهيّة، وسَط الجماعة (راجع عب ٢:١٢)، وكذلك نحو تكوين جسدِ المسيح، «الخبزِ الأوحد» الذي يتكوّن من كثيرين، بالمشاركة الجماعيّة في الخبز المكسور وفي كأس البركة (راجع ١ كو ١٠: ١٦-١٧)، اللذَين هما أسمى علامةٍ سرّية حتى منتهى الدهور.

ينجمُ عن ذلك مظهرٌ مشترَكٌ لجماعةٍ تلازمُ الرسلَ، خدمةَ العهد الجديد، الذين يعلنون تحقيق المواعيد في شخص المسيح الذي صُلب وقام من بين الأموات. في مرحلة ما بعدَ الرسل، يُوردُ لنا إغناطيوسُ الأنطاكيُّ الرؤيةَ نفسَها عن الكنيسة المصلّية: «لمّا كان الرّبُّ لم يعمل شيئاً بدون الآب الواحد معه، ولم يعمل شيئاً هو بنفسه، ولا بالرسل، كذلك أنتم لا تعملوا شيئاً بدون الأسقف والكهنة... سارعوا كلُّكم كما إلى هيكل الله الوحيد، حول المذبح الوحيد، الذي هو المسيحُ الوحيد، المنبثقُ من الآب الوحيد، والعائدُ إليه متّحداً به»[٣٠].

حتى إذا كان الترهّبُ النسكيُّ قد ازدهر وما زال مزدهراً في الشرق، إلاّ أن طابَعَ الصلاة المشتركة يميّز بطريقةٍ أساسيّة الروحانيّة الشرقيّة؛ فيحدّدُ المؤمنُ موقعَ حياته الروحيّة في الليترجيّا. يجب أن يحافَظ على هذه الميزة وأن يُعملَ على إنعاشها في قلوب المسيحيّين، فيُتحاشى بالتالي أن يتسرّب في صفوف المؤمنين، البحثُ عن روحانيّاتٍ غالباً ما تكون غريبةً عن التقليد الخاصّ، وأحياناً عن الإيمان المسيحيّ نفسه.

[٣٠] **إغناطيوس الأنطاكيّ، رسالة إلى المغنيزيّين** ٧، ١-٢: سلسلة «**المصادر المسيحيّة**» ١٠ آ، ٨٤-٨٦.

٣٢. الكنيسة صانعةُ الإفخارستيّا

من المؤكد أن الصلاة الليترجيّة تتطابق ووديعةَ الإيمان الأصيلة وتعبّر عنها بالتمام وفقاً للعبارة القديمة الواردة في الـ (Indiculus): «لتسيِّر شريعةُ الصلاة شريعةَ الإيمان»[٣١]، التي تُختصر عامّةً بـ «شريعة الصلاة هي شريعةُ الإيمان». فالكنيسة إذن تفهم نفسَها بالعمق وبالحقّ انطلاقاً من طبيعتها كجماعةٍ محتفلة. ومن هذا المعنى، يجب ألاّ يغربَ عن البال أنه إذا كانت الكنيسة تصنع الإفخارستيا، فالإفخارستيّا، تصنع الكنيسة إلى حدّ أنها تصبح معيارَ تثبيتٍ للعقيدة الحقّة، على حدِّ ما يذكّر به إيريناوسُ أسقفُ ليون: «يتوافق فكرُنا تمام التوافق مع الإفخارستيّا، والإفخارستيّا بدورها تثبّت فكرنا»[٣٢].

٣٣. الإفخارستيّا صانعةُ الكنيسة

يحرّض الرسولُ بولس الرومانيّين على أن يؤدّوا عبادةً لله روحيّة، فيقرّبوا أجسادَهم ذبيحةً حيّةً، مقدّسةً ومرضيّةً لله (١٢: ١). ويكرّرالرسولُ بطرس التوصيةَ نفسها عندما يكتب

[٣١] ***Indiculus***، الفصل ٨: DS ٢٤٦/١٣٩؛ راجع أيضاً PROSPER D'AQUITAINE، **في دعوة جميع الأمم** ١، ١٢: الآباء اللاتين (PL) ٥١، ٦٦٤ C.

[٣٢] إيريناوس أسقف ليون، **ضدّ الهرطقات** ٤، ١٨، ٥: سلسلة «م م» ١٠٠، ٦١٠.

أنا «حجارةٌ حيّةٌ لبناء بيتٍ روحيٍّ، لكهنوتٍ مقدّس، لإصعاد ذبائحَ روحيّةٍ مقبولةٍ لدى الله بيسوعَ المسيح» (١ بط ٢: ٥). من حقِّ المعمّدين إذن ومن واجبهم في الوقت عينه أن يقرّبوا معاً عبادةً مرضيّةً للآب، بواسطة الابن، في الروح القدس.

في سبيل ذلك، يجب تنشئة ضمير المؤمنين وتهيئة الطرُق والآفاق الضروريّة حتى تكون تلك المشاركة كاملةً، بالتالي فاعلةً وملأى وتقويّةً وذكيّةً ومثمرة. ليُعنَ إذن، بعد محصٍ تاريخيّ دقيقٍ للطقوس، بأن تُعاد للشعب الأجزاءُ الخاصّةُ به، والتي انتُزعت منه ظلماً على مرّ العصور. ومن أُسطت بهم بعضُ المسؤوليّات (الكهنة، الشمامسة الإنجيليّون، القرّاء، المرنّمون، الشرّاح، الجوقة إلخ...) عليهم ألاّ ينوبوا مناب الجماعة كلّها، بل أن يقودوها كي تستطيع أيضاً كما يليق أن تعبّر خارجيّاً عن مشاركتها. وفي الوقت عينه، استحاشَ بأن تُسند إلى الشعب أجزاءٌ من الصلاة هي من صلاحيّة الخَدَمة المقدَّسين حصراً.

٣٤. الجماعاتُ الليترجيّةُ منظّمةٌ تنظيماً تراتبيّاً

يجب على الجماعات الليترجيّة أن تكون منظّمةً. فمنذ العهد القديم كان ذلك نظاماً صارماً على ما نشهدُه في سفرَي اللاويّين والعدد، نظاماً أقرّه القديسُ بولسُ كوصيّة: «ليَجرِ كلُّ شيءٍ على وجهٍ لائقٍ وفي نظام» (١ كو ١٤: ٤٠)،

خلال احتفال الجماعة. وكما كان المسيحيّون الأولون يصغون إلى التلاميذ كذلك كان خلفاؤهم الأساقفة يديرون اجتماعات الصلاة، شخصيّاً أو بواسطة كهنةٍ أو شمامسةٍ إنجيليّين. أما مضمون الاحتفالات فكانت تحدّده جزئيّاً صيَغٌ أو طقوسٌ موروثةٌ من الماضي- من العهد القديم ومن التقليد اليهوديّ -، فهمها المؤمنون على ضوءِ الوحي المسيحيّ؛ وفي جزءٍ آخر، اشتمل المضمونُ على ابتكاراتٍ لاحقةٍ وضعَها إمّا كتّابٌ من العهد الجديد، وإمّا مَن لحقهم. وهي ابتكاراتٌ كانت تُحييها على الدوام سلطةُ الشعب المسيحيّ وحسُّ الإيمان.

يذكّر القانون ٧، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» أن جميعَ المؤمنين المسيحيّين يشاركون في وظيفة المسيح الكهنوتيّة، ولذلك تُوكلُ إليهم جميعاً تأديةُ العبادة. ويؤكدّ القانون ١٧ علاوةً على ذلك، فيقول: «للمؤمنين الحقُّ أن يؤدّوا العبادةَ لله بحسب رسوم كنيستهم ذات الشرع الخاصّ، وأن يتّبعوا في حياتهم الروحيّة طريقَتَهم الخاصّة، شرطَ أن تتوافق، مع ذلك، وتعليمَ الكنيسة».

كلُّ مؤمنٍ إذن يؤدّي العبادةَ الإلهيّة بالطريقة الخاصّة به: فجماعاتُ العبادة تتألّف من أجزاءَ مختلفة مثلما الجسم يتألّف من أعضاءَ مختلفة تؤلّف جميعُها معاً كائناً حيّاً واحداً

(راجع ١ كو ١٢: ١٢-٣١). وهكذا فإن جسمَ الجماعةِ الليترجيّةِ المحكمةِ التنظيم والتوحيد بتعاونِ كلّ مفصلٍ، ووفقاً لحيويّة كلِّ عضوٍ، يمكنها أن تنمو وتبلغَ إلى وحدة الإيمان وإلى معرفة المسيح، متحاشيةً خطر الانجراف، من هنا ومن هناك، فتبعثَ بها كلُّ ريحِ تعليمٍ (راجع أف ٤: ١٣-١٦).

الفصل السادس

خواطرُ عامّة بشأن العبادة الإلهية والأسرار

٣٥. مبادىءُ الحياة الليترجيّة

كلَّ يومٍ وبطرقٍ عديدةٍ وفي أوقاتٍ مختلفةٍ، «تقوم الليترجيّا ببناءِ المؤمنين هيكلاً مقدَّساً في الربّ، مسكناً لله في الروح»[٣٣]. الأسرار هي فتراتُ الحياة الليترجيّة الأساسيّة. إلاّ أنها ليست منعزلةً بل مندمجةٌ في إطارٍ يحضّرها ويوسّع عملها وفعّاليّتَها. من الأهميّة بمكان هي الصلاةُ التي تنيرُ مختَلِفَ أقسام اليوم والدورةَ السنويّة. وهي تأخذ في «م.ق.ك.ش.» اسمَ « التسابيحِ الإلهيّة»، وتشمل، علاوةً على البركة، التضرّعَ والإصغاءَ إلى كلمة الله. التسابيحُ الإلهيّة اليوميّة تعمل، في كلّ لحظةٍ من اليوم، على تألق النعمة الإلهيّة النابعة من السرِّ الفصحيِّ المحتفَلِ به على أكملِ وجهٍ، في الاحتفال

[٣٣] المجمع الفاتيكاني الثاني، الدستور الراعوي «**الليترجيا المقدسة**»، ٢.

الإفخارستيّ. ومن العناصر الأخرى أيضاً الأبنيةُ المقدّسة وتنسيقاتُها الهندسيّة، والزينةُ، والأدواتُ والإيقوناتُ المقدّسة، وكذلك تسلسلُ الاحتفال بمختلِف الوظائف الليترجيّة.

٣٦. السنة الليترجيّة

إن دورة الأعياد السنويّة التي يشغل عيدُ الفصح النقطةَ المركزيّة منها، والدورةَ التي ترتبط بالأعياد الشهريّة، والدورةَ الأسبوعيّة والدورةَ اليوميّة، وحتى دورةَ أحداث الحياة التي تسِمها الأسرار، هذه كلُّها تتداخل وتتساندُ لتؤلّف لُحمةً هيّةً تستحضر مختلِفَ مراحلِ تاريخ الخلاص، وتُشبعُ منها كلَّ حياة المؤمنين الروحيّة. وهكذا ترتابط روزنامةُ الكنائس الشرقيّة المتنوّعة، يميّزها تناسقٌ روحيٌّ حكيمٌ.

في الكنائس الشرقيّة كلّها يُحاط الاحتفالُ ببعض الأعياد بأهميّةٍ بالغةٍ، خارجاً عن الآحاد وعيد الفصح السنويّ. وتحدّد القانون ٨٨٠، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» أنه لا يحقُّ إلاّ للسلطة الكنسيّة العليا وحدَها أن تنشىءَ أو تنقلَ أو تلغيَ أيامَ الأعياد. فيعود إذن إلى السلطة التي يحقُّ لها أن تضعَ الشرعَ الخاصّ أن تنشىءَ أو تنقلَ أو تلغيَ بعضاً من تلك

الأعياد، مع المراعاة الدائمة لواجب الحفاظ على التراث الخاصّ ورفضِ التعديلات التي لا تؤول إلى تقدّمٍ تنظيميٍّ خاصّ[٣٤].

بعضُ الأعيادِ ذاتِ أهميّةٍ أكبر يُعتَبرُ أعيادَ بطالة، والبعضُ الآخرُ نراه مشتركاً بين جميع الكنائس الشرقيّة[٣٥]. فمن واجب المؤمنين المسيحيّين، في هذه الأعياد، أن يشاركوا في العبادة الإلهيّة وأن يمتنعوا عن كلِّ نشاطاتٍ تحول دون مشاركتِهم تلك[٣٦].

وإلى جانب أيام الأعياد هذه، وبطريقةٍ اعتياديّة تحضيراً لتلك الاحتفالات، يجب الحفاظُ أيضاً على أيّام التوبة[٣٧]، التي يتوجّب فيها على المؤمنين المسيحيّين أن يتقيّدوا بالصوم والقطاعة، وفقاً لما يفرضُه الشرعُ الخاصُّ في الكنيسة ذاتِ الشرعِ الخاصّ[٣٨].

وإذا ما كان قد أُدرجَ حديثاً في روزنامات الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة أعيادٌ أو أصوامٌ اقتُبست من الليترجيّا اللاتينيّة أو ليترجيّاتٍ أخرى لا تتناسب معها، فلتُردَّ الروزنامةُ،

[٣٤] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٨٨٠، البند ٢ الذي يذكّر بالقانون ٤٠، البند ١.

[٣٥] راجع ق ٨٨٠، البند ٣ من «م.ق.ك.ش.» الذي يسردُ الأعيادَ كلّها.

[٣٦] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٨٨١.

[٣٧] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٨٨٠، البندين ١-٢.

[٣٨] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٨٨٢.

بعطنةٍ راعويّة، إلى هيكليّتها التقليديّة، بإلغاء العناصر التي لا توافقُ وروحَ الطابَعِ الشرقيِّ وطبيعته.

وطالما لم يتوصّل جميعُ المسيحيّين بعدُ إلى الاتفاق المرتجى لتحديد يومٍ واحدٍ للاحتفال المشترك بعيد الفصح، يجب تشجيعُ الممارسة المألوفة عند بعض الجماعات الكاثوليكيّة العائشة في بلدانٍ ذاتِ أكثريّةٍ أرثوذكسيّة، بأن تحتفلوا بالفصح في اليوم نفسه مع الأرثوذكس، وفاقاً **للملحق** الوارد في الدستور المجمعيّ «**الليترجيّا المقدّسة**»، وفي الرقم ٢٠ من القرار المجمعيّ «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**». وهذا يسمحُ للمؤمنين الكاثوليك، ليسَ فقط بأن يُدلوا بعلامةِ أحوّةٍ مسكونيّة، بل أيضاً بأن ينخرطوا بتناسقٍ في الحياة المدنيّة بمادي فارقٍ في الوقت خالٍ من أيّ معنىً.

٣٧. العلاقةُ مع الربّ يسوع، كغايةٍ لليترجيّا

في دراسة الأسرار وشرح معناها ومحتواها، لخير الشعب كلّه، وكذلك في جميع احتفالات الكنيسة الليترجيّة، يكمنُ القاعدةُ الأساسيّة في أن نجد دوماً الرباطَ العمليَّ الوثيقَ مع السيّد المسيح. في مختلف أزمان السنة الليترجيّة، تُذكرُ أهمُّ أحداث تاريخ الخلاص: أحداثُ العهد القديم التي تجدُ كمالَها في المسيح؛ وأحداثُ العهد الجديد التي تتوزّع على حياته كلّها بين الناس مقدّماً لهم وصايا الخلاص وقائداً إيّاهم إلى معرفة

الإله الحقيقيّ[٣٩]؛ وأحداثُ زمن الكنيسة التي يتابع الربُّ فيها القيامَ بعظائمَ في قدّيسيه. وهذا يُطبَّق بالأخصّ على الأسرار التي بها، بطرق عديدة، يطهّرنا الربُّ في الماء، ويقدّسنا في الروح، ويترك لنا تذكار آلامه لخلاصنا، في سرّ جسده ودمه.

٣٨. العلاقات القائمة بين الليترجيّا وممارسات التقوى

عرفت الكنائسُ الشرقيّة أن تُدرجَ تقليديّاً في ليترجيّاها عناصرَ مختلفةً تتجاوبُ وحساسيّةَ النفسِ الشعبيّة. إنها تحوي عباراتٍ وأساليبَ عبادةٍ خاصّةً، غيرَ مكتملةِ التحديد، أكثرَ فرديّةً، ولربّما أكثرَ سهولةً، من مثل الأدعيةِ النافذة، والاحتفالاتِ بعباداتٍ ذاتِ محتوىً خاصّ؛ وتكريمِ الصليب الكليّ القداسة، والإيقونات، والذخائرِ والمعابد؛ واستخدامِ القناديل والبخور، وأحياناً أيضاً تقدمةِ حيوانات. لكن بقيَت هذه التعابيرُ التقويّةُ مرتبطةً عادةً بالحياة الليترجيّة، تستوحيها ونوعاً ما تندمج فيها.

لربّما لهذا السبب لم تتولّد إجمالاً، في الشرق، مجموعةٌ من الممارسات التقويّة بموازاة الطقس الرسميّ، مثلما حدَث في الغرب. إلاّ أن بعضَ الكنائس الشرقيّة تقبلَ عدداً من ممارسات العبادة الخاصّة بالكنيسة اللاتينيّة لا تشكّل جزءاً من البنية

[٣٩] راجع الأنافور البيزنطي للقدّيس باسيليوس الكبير.

الليتورجيّة للعبادة الشرقيّة. فلا يحسُن أن تظهر ممارساتُ العبادة الخاصّة، التي تسهم في حياة المؤمنين الروحيّة، غريبةً عن التراث الخاصّ بكلّ كنيسة: فإذا ما تطوّرت بمعزلٍ عنه فمن السهل أن تولّد أشكالاً للروحانيّة «موازية». لكن بما أن تلك المعتقدات أصبحت بعدَ اليوم شديدةَ الانتشار في الكنائس الشرقيّةِ الكاثوليكيّة، تغذّي في الواقع وتنشّط مؤمنيها، فإنه من اللائق بمكانٍ وعلامةُ عدمِ شعورٍ راعويّ الظنُّ أنه من الضروريّ إلغاؤها بدون تروٍّ. على السلطات في الكنائس ذات الشرع الخاصّ، أن تنشّط عمليّاً وتؤمّن للمؤمنين تنشئةً استثنائيّةً حقيقية، تطال أولاً الخدَمة، بغية إحلالِ روحانيّةٍ تنبُع من التقاليد الليترجيّة الخاصّة. والمؤمنون، وقد اغتنَوا بمثل هذه التنشئة الفضلى، يُصبحون تدريجيّاً أكثرَ قدرةً على أن يَحيَوا ويكتشفوا من جديد ثروات ليترجيّاتهم الخاصّة.

في هذا العمل الراعويّ، يجب أن يُستوحى ما يوصي به الرقمُ ١٣ من الدستور المجمعيّ في «الليترجيّا المقدّسة»: «إنّ "أعمال التقوى" التي يقوم بها الشعبُ المسيحيّ (...) يجب أن تنظَّم بطريقةٍ تتناسق والليترجيّا، وتصدرَ عنها بوجهٍ من الوجوه، وتقودَ الشعبَ إليها، لأن الليترجيّا بطبيعتها أسمى وأرفع منها».

في كلّ الأحوال، لا يغربنّ عن البال ما يحدّده القانون ٦٥٦، البند ٢: «كتبُ الصلوات أو العبادة المعدّة لاستعمال المؤمنين العامّ أو الخاصّ بحاجةٍ إلى إذنٍ كنسيٍّ».

٣٩. قراراتٌ مجمعيّةٌ حول الأسرار

حرصاً منه على الحفاظ على التقاليد الشرقيّة الوافرة الثمن، «ثبّت المجمعُ المسكونيّ المقدّس ويقرّر نظامَ الأسرار القديم، الساريَ في الكنائس الشرقيّة، وكذلك الطريقةَ المتّبعة في القيام بها ومنحها. ويتمنّى الرجوع إلى هذه الطريقة حيث تقضي الحالُ بذلك»[٤٠]. في الرقمين ١٣ و١٨ من «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**» حُدِّدت تعليماتٌ أكثرُ إلحاحاً يُمكن ويجب أن تشكّلَ مثالاً للمقاييس المتّبعة في أحوالٍ أخرى. ولقد تحقّق ذلك، أقلّه جزئيّاً، على مستوى الشرع العامّ، في «م.ق.ك.ش.»، ولكن يجب أن تحدِّدَه بالأخصّ، على الصعيد الخاصّ، سلطاتُ مختلِفِ الكنائس ذاتِ الشرع الخاصّ.

علاوةً على ذلك لم يكتفِ المجمعُ بتثبيت أو بمدح النظام القديم الساري المفعول في الكنائس الشرقيّة، بل تمنّى الرجوعَ إليه حيث أُهمل. لذلك على مختلِف الكنائس ذاتِ الشرع الخاصّ، عند إعادة النظر في شرعها الخاصّ، أن تأخذ

[٤٠] المجمع الفاتيكاني الثاني، القرار: «**الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة**»، ١٢.

بعين الاعتبار ذلكَ التمنّي وأن تباشر بشجاعة، ولكن أيضاً بحكمة وتدريجيّاً، عمليّةَ استعادة العناصر التي فُقدت. لذلك عليها، إذا لزم الأمر، أن تبدِّل الممارسةَ والشرعَ الحديثَي العهد، في حالِ تعارضا والمبادئَ الموضوعة، حتى اذا طال ذلك قرارات اتّخذها سينودساتٌ، أو إذا وجب التخلّي عن تعليمات أعطتها، في أوقاتٍ أخرى ولأسبابٍ عديدة، دوائرُ الكرسيّ الرسوليّ.

٤٠. الأسرار، عملُ الكنيسة

تشكّل الكنيسة التي يتجلّى فيها الله، نوعاً ما، السرَّ الأوحدَ الذي منه يصدر كلُّ عملٍ أسراريّ. وفقاً للقانون ٦٧٣، يُعتبر الاحتفالُ بالأسرار عملَ الكنيسة، أي عملَ جماعةِ أبناء شعب الله، جسدِ المسيح، «الحسنِ التنسيق والوحدة، بمعاون جميع المفاصل، على حَسب العمل المناسِب لكلِّ عضو» (أف ٤: ١٦). وهذا يقود إلى مشاركةٍ فعّالة لجميع المؤمنين في الاحتفال. من المهمّ مشاركةُ جميع أعضاءِ شعب الله في ديناميّة الاحتفال وأن تتجلّى دائماً في الاحتفال بالأسرار التي تُعتبر قمّةَ أعمالِ حياة الكنيسة.

٤١ . أسراريّة العالم المخلوق

يؤكدُ القانون ٦٦٧ من «م.ق.ك.ش.» أنَّ من واجب الكنيسة أن توزّعَ الأسرار «كي تنقل، بعلامةٍ محسوسة، أسرارَ المسيح»، وأن بها «يقدّسُ سيّدُنا يسوعُ المسيحُ البشرَ بقوّة الروح القدس، بحيثُ يصبحون، بطريقةٍ فريدة، عبّاداً حقيقيّين لله الآب، وبحيثُ يضمُّهم هو إلى ذاته وإلى الكنيسة جسده».

إذن، وقبل كلِّ شيء، تمنح الأسرارُ، أسرارَ المسيح، أي كلَّ ما أتمَّ على الأرض كي يحقّق التدبيرَ المكتومَ منذ الدهور في فكر الله الخالقِ كلِّ شيء (راجع أف ٣: ٩-١١)، «كي يجمع تحت رأسٍ واحدٍ في المسيح، كلَّ شيءٍ، ما في السماوات وما على الأرض» (أف ١: ١٠)، ويجعلَنا «قدّيسين وبغير عيبٍ أمامه في المحبّة» (أف ١: ٤).

نُمنح أسرارَ المسيح بواسطة علاماتٍ مرئيّة. فالأسرارُ هي إذن المكانُ الذي فيه يُضطلعُ بالمخلوقات لعمل نعمة الله فتبلغُ هكذا ملءَ معناها. إن تدبيرَ النعمة الإلهيّة التي يُمنحُها البشرُ تتحقّق بحركاتٍ وأقوالٍ (راجع أع ١: ١)، تُظهر قيمة «العناصر الكونيّة»: الجسمِ البشريِّ قبل كلِّ شيء؛ ثم الماءِ والزيتِ والخبزِ والخمر؛ الأدواتِ مثل كأسِ الإفخارستيّا؛ البناءِ المقدَّس، مع كلِّ ما يمثّل وما يحتوي عليه في الداخل، وبالأخصّ الصليبُ والإيقوناتُ المقدّسة، وكذلك الأوقاتُ والأماكنُ المقدّسةُ نفسُها.

تلك العناصرُ يضطلعُ بها الربُّ يسوع بواسطة الروح القدس، الذي يعود ويجمعُها ويأتمنها الكنيسة كأدواتٍ أسراريّةٍ مادّية. وبدورها نعمةُ الروح القدس تستخدمُها لغذاء الإنسان والكون وتقديسِهما (راجع روم ٨: ١٦-٢٥)، ولكي تقرِّب الله عبادةً أكثرَ استحقاقاً. في هذا الإطار، تكتسبُ البركاتُ والحركاتُ الليترجيّة كلَّ معناها. في لاهوت الليترجيّا، وبالتالي في شرح معنى الأسرار للشعب، يجب أن يكوِّن هذا كلُّه مادّةً مهمّةً للتفكير والشرح.

الفصل السابع

أسرارُ التنشئة المسيحيّة

٤٢. الرابط بين أسرار التنشئة

ورد في «م.ق.ك.ش.» توجيهٌ يخرج عن العادات المألوفة وحتى عن التشريعات الخاصّة الصادرة في القرون الأخيرة، وهو تأكيدُ الرابط الوثيق الذي يجمع بين أسرار التنشئة المسيحيّة الثلاثة، مثلما يجبُ أن يظهر، حتى في أسلوب الاحتفال بها. في الحقيقة، تُعتبر التنشئةُ احتفالاً واحداً لا يتجزأُ للدخول في حياة المسيح، في الجماعة التي نحيا فيه. هذا الدخول الذي يبدأُ مع النداء الأول إلى الإيمان، يبلغ ذروتَه في سرِّ المسيح الفصحيّ، في موت الذي فيه نعمَّد لنقوم في قيامته، والذي يجعلُنا أبناءَ الله وهياكل الروح. وإذ «مسحَنا» الروح لأعمال الملكوت، أُهِّلنا هكذا لأن نشارك في وليمة الملكوت. هذا ما يبّرر ما ينصُّ عليه القانونان ٦٩٥ و٦٩٧ اللذان يفرضان منحَ الأسرارِ الثلاثة: المعموديّة والمسحةَ بالميرون والإفخارستيّا الإلهيّة، معاً، أو في أوقات متقاربة.

وفقاً لعقيدة الكنيسة القديمة وممارستها، مستوحيةً [ذ]لك العهدَ الجديد، كان المؤمنُ الذي يتقبّل موهبةَ روحِ [الق]ائم من بين الأموات المعاديّة (الإسكتولوجيّة)، يرضى أن [ي]تمّ الروحُ نفسُه في شخصه التماثلَ مع المسيح الربّ. إن [ال]ولادةَ الجديدةَ العِماديّة التي تصيّرنا أبناءً لله، وورثةً [لـ]لملكوت، مبرَّرين ومفتدَين ومقدَّسين، كانت تقود، حتماً، إلى الانخراط في شعب الله. وكانت «العلامةَ» الساميةَ لهذا [ا]لحدث القبولُ في وليمة الملكوت. مثلُ هذا السرّ الذي لا [يتج]زّأ كان يُمنح إذن بالضرورة، وبأسمى تناسق، ضمن إطار [ا]حتفال وحيد.

وهكذا، وبدءاً من هذه اللحظة، كان يزوَّد المؤمنُ [بك]لّ الصفات والوظائف بدون استثناء التي تولّدها حياتُه [ا]لجديدةُ في المسيح، وفي الروح (راجع روم ٨: ٩). إذن، [ا]حتفالٌ واحدٌ، لأن هناك عملٌ واحدٌ لا يتجزّأ للروح الآب والابن. لقد اتُّبع مثل هذا العُرف في حياة جميع كنائس القرون الأولى[٤١].

أهملت الكنيسةُ الغربيّة هذه الممارسة لأسباب تاريخيّة و[ث]قافيّة، ومُنحَ الأولادُ التنشئةَ العِماديّة في مراحلَ مختلفةٍ

[٤١] [ر]اجع مثلاً: هيبوليتس. **التقليد الرسوليّ** (حوالى العام ٢١٧)، في سلسلة «**المصادر المسيحيّة**»، ١١ وكذلك مواعظ آباء الشرق والغرب عن المعموديّة ومواعظ شرح الأسرار المتتالية.

متتالية. إلاّ أن العُرف القديم بقي محفوظاً سليماً وبدون انقطاع في الشرق. هذا الربـاطُ هو من القوة بمكانٍ حتى إنه في بعض النصوص تردُ عادةً مع عبارة «معموديّة» مراحـلُ التنشئة المسيحيّة الثلاث، وهذا هو العنوانُ الذي تُعطاه في العديد من الإفخولوجيونات المخطوطو أو المطبوعة.

في القرون الأخيرة، تبدّلت هذه الممارسةُ في العديد من الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، تحتَ تأثيرِ ضغوطاتٍ خارجيّة، ترتكز على مفاهيمَ روحيّةٍ وراعويّةٍ مقتبسةٍ من اللاتين، يمكن فهمُها ولكنها تبدو غريبةً عن تطوّرٍ تنظيميّ، ولا تتوافق مع ديناميّة التراث الشرقيّ الخاصّة. وحيث فُقدت الممارسةُ التقليديّةُ يتطلّب تطبيقُ الأنظمة، التي يفرضها القانون بهذا الشأن، إصلاحاً حقيقيّاً يماثل ما فرضه الدستورُ المجمعيُّ «في الليترجيّا المقدّسة» على الكنيسة اللاتينيّة.

وفيما يسيرُ العملُ بدون تسرّعٍ يجب قبل كلّ شيء أن يوعَز بدراسة الممارسة القديمة دراسةً معمّقة، على ما تتّضحُ من المخطوطات ومن النصوص المطبوعة العائدة إليها، والتي كتبها شرقيّون كاثوليك وأرثوذكس أيضاً. يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار كذلك الممارسةُ المتّبعةُ أيضاً عند الأرثوذكس وأن يُعتنى بالتثقيف الضروريّ حتى يُمكنَ أن يفهَمَ التعليلات جميعُ الناس: الإكليرُسُ واللاهوتيّون والشعبُ المسيحيّ. وفيما

...رّر إصلاحُ الممارسة يجبُ الاهتمامُ بـألاّ يُـهمَل الأولادُ ال...تأون حديثاً من التعليم المسيحيّ الضروريّ والمتدرّج، وذلك حالما يُعتبرون أهلاً للاقتراب من تفهّم أسرار الإيمان، وأن يُتابعَ ذلك التعليمُ حتى بلوغهم النضج.

إن اشتراكَ الأولاد في فتراتٍ من الاحتفالات الليترجيّة، ولو كانت وجيزةً ولكن منتظمة، يشكّلُ بحدِّ ذاته ...صراً ثميناً من عناصر التعليم المسيحيّ، يُدخلهم عمليّاً في ...ياة الكنيسة مع تنشئةٍ لربّما تقلُّ فيها المبادىءُ والعقلانيّة، ولكنها تكون ناجعةً لأنها تدمُجُهم في جوٍّ من الاحتفال حيثُ الحركاتُ المنفّذة تولِجُ حقّاً إلى الوقائع غير المرئيّة. وتتطلّب المسيرةُ بأكملها أيضاً جُهداً خلاّقاً كي توضعَ الممارسةُ الجديدة، بطريقةٍ مناسبة، في إطار الحياة الحاضرة. إن في ذلك المادرةً صعبةً ولكن لا يمكنُ الاستغناءُ عنها إذا أريد حقّاً إعادةُ إحياءِ التراث الخاصّ، في سبيل منفعة الكنيسة الجامعة.

٤٣. المعنى اللاهوتيُّ لأسرار التنشئة

بالمعموديّة يحرَّر الإنسانُ من الخطيئة ويُولَدُ لحياةٍ جديدة، ويلبسُ المسيحَ وينضمُّ إلى الكنيسة[٤٢]؛ وبمسحة الميرون المقدّس يُوسَمُ بختمِ موهبة الروح القدس[٤٣]. وتكتمل تنشئته

[٤٢] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٦٥٧، البند ١.

[٤٣] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٦٩٢.

بقبول الإفخارستيّا، ليس فقط سرّ شركة الأفراد مع المسيح، رأسِ الجسدِ السرّيّ، بل أيضاً سرّ الشركة بين جميع المؤمنين، أعضاءِ الجسد الذي يحيا حياةً جديدةً في المسيح. إنّ التغذّي بجسد الكلمة المتجسّدِ ودمهِ يقودُ المسيحيَّ إلى الكمال، بحيثُ إنه ليس هو الذي يحيا من بعدُ، بل إنما المسيحُ هو الذي يحيا فيه (راجع غل ١: ٢٠). إن الاحتفالَ الأسراريَّ بالتنشئة المسيحيّة هو العلامةُ الظاهرة التي تمنحُ موهبةَ العطف التي يمنحها الآبُ السماويُّ للبشر في ابنه المتجسّد، ويُعطي الحياةَ الأبديّةَ لمن يسمع كلامَ المسيح ويؤمنُ بمن أرسله (يو ٥: ٢٤).

٤٤. أهميّةُ الاستعداد للمعموديّة ودورُ العرّاب

المعموديّةُ هي السرُّ الممنوح للذي يؤمن بالمسيح ويريد أن ينضمّ إليه. جميع كتبِ الرُّتَب المسيحيّة، سواءٌ منها الشرقيّة أو الغربيّة، توصي بأن يسبقَ منحَ السرِّ استعدادٌ يعبَّر فيه تدريجيّاً إمّا عن مسيرة المرشَّح نحو المسيح، وإمّا - حالاً قبل المعموديّة - عن انضمامه إلى المسيح ورفضه الشيطان وقوى الشرّ، وفقاً لما يتناسب وتلك المسيرة. ومثالاً على ذلك يمكن التذكيرُ بعظات القديس يوحنّا الذهبيّ الفم أو معاصره مار تيودورس المصّيصي اللذين يشيران إلى ضرورة أهميّة التنشئة على أسرار المسيح.

إن الصيَغ الطقسيّة التي تعبِّر عن هذا الموقف يجب أن توافقَ واستعدادات المرشَّحين العمليّة، الشخصيّةَ منها إذا كانوا من البالغين[٤٤]، أو استعدادات ذاك الذي يعتبر نفسَه كفيلاً وعليه أن يؤمّن تربيةً مسيحيّة، إذا كانوا من الأطفال[٤٥].

إلى هذا الاهتمام عينه يعود «العرفُ العريقُ في القِدَم بأن يكون لمن يجب أن ينالَ المعموديّة، على الأقلّ عرّابٌ»، يقع عليه واجبُ تقديم المرشَّح وعملِ كلّ ما أمكن حتى إنه، بعد التنشئة، «يسيرُ المعتمدُ سيرةً مسيحيّةً لائقةً بمعموديّته ويقومُ قياماً أميناً بالواجبات التي تقتضيها» (ق ٦٨٤).

ولضمان هذا كلّه، يشير القانون ٦٨٦، البند ٢ من «م.ق.ك.ش.» إلى اقتضاءِ استعدادٍ مناسب، عندما يوصي، قائلاً: «على خوري الرعيّة أن يُطلعَ والدَي الطفل الذي سيعمَّد والقائمين بمهمّة العرّاب، إطلاعاً عميقاً على معنى هذا السرّ، وعلى الواجبات التي ترافقه، ويُهيّئَهم للاحتفال به تهيئاً كافياً».

[٤٤] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٦٨٢.

[٤٥] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٦٨١، البند ١، ١°.

من المفيد في هذا الصَدد الاطلاعُ على الحلول التي تبنَّتها كنائسُ أُخرى[٤٦]، لضمان جدّية الارتداد الذي تفرضه التنشئة المسيحيّة.

٤٥. تمييز مراحل رتبة المعموديّة

التنشئةُ المسيحيّةُ هي مسيرةُ ارتدادٍ وتوبةٍ يحدّدها بعضُ الأوقات والطقوس التي تحقّق تثقيفاً خلاصيّاً حكيماً.

اليوم، في غالب الأحيان، يُحتفل برتبة المعموديّة مصحوبةً بالرتَب التي تهيّئُ لها. تلك هي في الواقع طبيعةُ تطوّر مسيرة الارتداد التي تفرض، من ثَمَّ، التمييزَ القديمَ في المدّة الفاصلةِ بين القسم التحضيريّ والاحتفال الحقيقيّ بالمعموديّة. ومثلُ هذا الفصل يجب إعادته بطريقةٍ بالغة المغزى، إذا ما كانت الرتبةُ رتبةَ معموديّةٍ بالغين.

٤٦. خادمُ سرِّ المعموديّة

خلافاً لما يحصل في التقليد اللاتينيّ والذي كرَّره «الحقُّ القانونيُّ الكنسيُّ» في القانون ٨٦١، البند ١، يُحصر منحُ سرِّ المعموديّة العاديُّ في جميع التقاليد الشرقيّة – وهذا ما ذكّر به القانون ٦٧٧، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» – في من أُلبسوا نعمةَ الكهنوت، أي في الأساقفة والكهنة، مُقصياً

[٤٦] راجع مثلاً، ما جاء عند الكنيسة اللاتينيّة، «الحق القانوني». ق ٨٥١.

الشمامسة الإنجيليّين الذين سيموا بوضع الأيدي عليهم «لا بقصدِ الكهنوت بل بقصد الخدمة»[٤٧].

على العكس من ذلك، في حال الضرورة، ووفقاً لما ورد في القانون ٦٧٧، البند ٢، يجوز ليس فقط للشمامسة الإنجيليّين بل أيضاً للإكليريكيّين، الأعضاء في مؤسَّسات الحياة المكرَّسة، وأيضاً «لأيِّ مؤمنٍ مسيحيّ» أن يمنحوا سرَّ المعموديّة بوجهٍ شرعيّ؛ ولكن لا يحقُّ ذلك «لأيِّ شخصٍ تحرّكه نيّةٌ صالحة»، وفقاً لما ورد في القانون ٨٦١، البند ٢، من «الحق القانونيّ الكنسيّ» للكنيسة اللاتينيّة. مثل هذا الفارق يؤكّد أن المعموديّة تخلّص الفردَ بضمّه إلى جماعةٍ كنسيّة. وحدَه، إذن، عضوٌ من تلك الجماعة يستطيع أن يعمِّد.

الانضمامُ إلى الجماعة الكنسيّة يظهر أيضاً في «م.ق.ك.ش.» عندما تؤكّد أنَّ «منحَ سرِّ المعموديّة هو من صلاحيّة (...) خوري رعيّة المعتمِد الخاصّ، أو كاهنٍ آخرَ بإذنٍ من ذلك الخوري نفسه أو من الرئيس الكنسيِّ المحلّي» (ق ٦٧٧، البند ١)، وأنه «لا يجوزُ لأحدٍ أن يمنحَ سرَّ

[٤٧] **قوانين الكنيسة المصريّة** ٣، ٢: وردت في المجمع الفاتيكاني الثاني، الدستور العقائدي «**نور الأمم**»، ٢٩.

المعموديّة، بغير إذن، في مكانٍ تابعٍ لولاية الغـــير» (ق ٦٧٨، البند ١).

٤٧. منحُ سرِّ المعموديّة وفقاً للطقس الخاصّ

باستثناءِ بعض الأحوال الخاصّة جدّاً، توافقُ عليـــها السلطة المختصّة، يجب ألاّ تشجَّع البتّةَ عادةُ طلب المعموديّـــة حسب طقسٍ غيرِ الطقسِ الخاصّ لأسبابٍ محضُ جماليّـــة، أو لصداقةٍ مع خادم السرّ، إلخ. ما عدا في حال غيابِ خادمِ سـرِّ الطقس الخاصّ، يجب أن يعني الاحتفالُ بالمعموديّـــة أيضـاً، بصورةٍ ظاهرة، الدخولَ في كنيسةٍ ذاتِ شرعٍ خاصّ. لذلـك يذكّر القانون ٦٨٣ من «م.ق.ك.ش.» أنه «يجب الاحتفـال بالمعموديّة وفقاً للمراسيم الليترجيّة في الكنيسة التي يجـب أن ينتمي إليها من سيعمَّد، على قاعدة الشرع».

٤٨. على الرتبة الطقسيّة أن تكون كاملةً وبالتغطيس

على السلطاتِ المختصّةِ في مختلِف الكنـائس ذاتِ الشرع الخاصّ أن تُعنى بإصدارِ تعليماتٍ ملائمةٍ كي يُعمـل على تجنّب تحويراتٍ أو اختصاراتٍ مجحفـةٍ أو تبـدو أقـلّ وضوحاً، بالنسبة إلى معنى مختلِف الأقسام التي تتـألّف منـها الرتبة: التحضير للتعزيمات ورفض الشيطان، رتبة بركة المـاء والزيت، والمسحات التي تسبق العماد، والرتبة الختاميّة لإلبـاس

الثوب بعد العماد. إن العديدَ من الكتب الليترجيّة يلحظ عادةَ منح سرِّ المعموديّة بالتغطيس الثلاثيّ. إنه لعُـرفٌ ذو مغـزىً وسامي التعبير، حوفظ عليه طويلاً في تقاليد الكنائس الشرقيّة، حتى في الوقت الحاضر، ويشجَّع علـى اسـتخدامه الآن في كنيسة الغرب[٤٨]، بالرغم من أنه غالباً ما يُستغنى عنه لأسـباب تسهّل الراحة. على السلطات المختصّة إذن أن تسعى لإعـادةِ رتبة التغطيس الثلاثي، وذلك بفطنةٍ ولكن أيضاً بغيرة.

٤٩. معنى المسحِ بالميرون المقدّس

المسحُ بالميرون المقدّس الذي تتحدّث عنه القوانـين ٦٩٢-٦٩٧ من «م.ق.ك.ش.» هو الاسم الذي يُعطـى في الشرق للسرِّ الذي يسـمّيه «الحـق القـانونيّ الكنسـيّ» «التثبيت». تلك التسميات المختلفة للسرّ الواحد تطابق لربّمـا مفاهيمَ تقليديّةً متشابهةً في جوهرها، ولكن مختلفة في شـكلها. كلٌّ واحدةٍ منها، في الواقع، تشدّد بالأفضل على مظهرٍ مـن مظاهرها: ففي الكنائس الشرقيّة يشدَّدُ على التنشئة الكاملـة على سرّ المسيح؛ أمّا في الكنيسة اللاتينيّة فعلى قدرة الشـهادة بالإيمان التي اكتسبَها الشخصُ.

[٤٨] راجع مثلاً «الحق القانونيّ الكنسيّ»، ق ٨٥٤.

لا يقضي القانون ٦٩٢ من «م.ق.ك.ش.»، وفقاً للتقاليد الشرقيّة، بأن يتمَّ المسحُ بالميرون المقدَّس، بوضع الأيدي، خلافاً لما تأمرُ به الليترجيّا اللاتينيّة[٤٩].

٥٠. خدّامُ سرِّ المسحِ بالميرون

يؤكّد القانونُ ٦٩٤ أنه «في تقليد الكنائس الشرقيّة، الكاهنُ هو الذي يَمسحُ بالميرون المقدَّس وذلك مع المعموديّة أو منفصلاً عنها»؛ ويحدّدُ القانون ٦٩٦، البند ١، أنَّ «جميعَ كهنة الكنائس الشرقيّة يستطيعون أن يمنحوه منحاً صحيحاً، مع المعموديّة أو خارجاً عنها، لجميع مؤمني أيِّ كنيسةٍ ذاتِ شرعٍ خاصّ، حتى الكنيسة اللاتينيّة».

على الكهنة الشرقيّين أن يستعملوا إمكانيّةَ مسحِ المؤمنين اللاتين بالميرون، بعظيم الفطنة، وإذا أمكن أن يتّصلوا بكهنة هذه الكنيسة المختصّين. ففي الكنيسة اللاتينيّة، في الواقع، يُمنح التثبيتُ عادةً للأولاد منفصلاً عن العماد، وفي ختامِ تعليمٍ دينيٍّ متدرّجٍ يشكّلُ هو أيضاً جزءاً من التنشئة المسيحيّة. فمسحُ المؤمنين اللاتين بالميرون، من دون أن يتلقّوا هذا التثقيفَ يهدّد بالضرَر مجموعَ تنظيم التنشئة المسيحيّة المرعيّة الإجراءِ في الكنيسة اللاتينيّة.

[٤٩] راجع «الحق القانونيّ الكنسيّ»، ق ٨٨٠، البند ١.

يختلف العُرفُ الشرقيّ عن العرف اللاتينيّ الوارد في القانون ٨٨٢ من «الحق القانونيّ الكنسيّ» الذي يُعلن أن «الخادمَ العاديَّ لسرِّ التثبيت هو الأسقف»، حتى إذا استطاع كاهنٌ أن يمنحه عندما يخوَّلُ هذه القدرة «بقوّة الحقّ العام أو بتفويضٍ معيَّن من السلطة المختصّة».

التشريعُ اللاتينيُّ الذي نشأ في ظروفٍ مختلفة يُظهر جليّا المبدأَ الذي أعلنه إغناطيوسُ الأنطاكيّ عن ضرورة الوحدة بين الكنيسة والمجلس الرعويّ حولَ الأسقف[٥٠]. أما في التقليد الشرقيّ، فيتجلّى هذا المظهر في تكريس الميرون المقدَّس المحصور في الأسقف وحدَه، أو، وفقاً لأنظمة الشرع الخاصّ، حتى في البطريرك وحده[٥١] الذي يحتفل بهذا التكريس بأقصى مظاهر الأبّهة. إسنادُ هذا الدور إلى البطريرك يُظهر رباطَ الشركة القائمة داخل الكنائس ذاتِ الشرعِ الخاصّ، في ما هو أبعد من كلّ أبرشيّة خاصّة. فليُحافظ، إذن، في هذا الشأن، بأمانةٍ على التقاليد القديمة.

[٥٠] راجع إغناطيوس الأنطاكيّ، رسالة إلى **الأفسسيّين** ٣-٤: في سلسلة «**المصادر المسيحيّة**» ١٠ ا، ٦٠-٦٢.

[٥١] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٦٩٣.

٥١. مناولة الحديثي الإيمان

يأمر القانون ٦٩٧ من «م.ق.ك.ش.» بأن تُمنحَ الإفخارستيّا، في أقرب وقتٍ ممكن، بعد المعموديّة والمسح بالميرون المقدّس، على قاعدة شرع كلّ كنيسة ذات شرعٍ خاصّ. ويعود القانون ٧١٠ إلى موضوع اشتراكَ الأطفال المعَّمدين حديثاً في الإفخارستيّا، ويوصي بأن تراعى في منحها تعليماتُ كتبِ ليترجيّا الكنيسة ذاتِ الشرعِ الخاصّ. يقتضي هذا التشريعُ الخاصُّ بالكنائس الشرقيّة بعضَ التوضيحات.

للأسباب التي سبق عرضُها لا يلحظُ تشريعُ بعض الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة الأنظمةَ المتعلّقةَ بمناولة الحديثي الإيمان. فغالباً ما رفضت تلك الكنائسُ المناولةَ الأولى في عمر الدراسة. فمن واجب السلطة المختصّة، إذن، أن تتبنّى تدابيرَ ملائمةً للعودة إلى الممارسة السابقة وتهيّىءَ أنظمةً تتوافق أكثرَ مع التقليد الخاصّ.

أما تعليماتُ الكتب الليترجيّة بهذا الشأن فيلاحَظ أنه، في غالب الأحيان، لا تحتوي تلك الكتبُ وكذلك كتبُ الكنائس التي حافظت على الأعراف القديمة، توجيهاتٍ عن الموضوع. ذلك أنه، إجمالاً، في الكنائس الشرقيّة، وُضع كتابُ رتبة المعموديّة للبالغين، ثم استُخدم للأطفال دون إدخال أيِّ تعديلٍ خاصٍّ عليه. وفي مقابل ذلك، عولجت هذه المادّةُ عادةً

في كتبِ راعويّةِ الأسرار. فيمكن من ثمَّ أن تُستعار بعضُ الاقتراحات العمليّة من أعراف الكنائس الأرثوذكسيّة.

أخيراً لا يقتصر منحُ الإفخارستيّا الإلهيّة للأولاد الحديثي الإيمان على وقت الاحتفال بالتنشئة فقط. فالإفخارستيّا هي خبزُ الحياة، وعلى الأولاد أن يغتذوا منها منذ ذلك الحين كي ينموا روحيّاً. أما طريقةُ مشاركتهم في الإفخارستيّا فمنوطةٌ بقُدرة استيعابهم: في البدء تختلف عن مشاركة البالغين، فهي لا محالة أقلُّ وعياً وعقلانيّةً، ولكنها ستتطوّر تدريجيّاً، من خلال النعمة والتربية الأسراريّة حتى تنمو فتنتهي «إلى حالة الإنسان البالغ، إلى القدر اللائق بملءِ اكتمال المسيح» (راجع أف ٤: ١٣).

إن هذا السرّ هو دائماً هبةٌ تعمل بفعّاليّة، وبطريقةٍ متنوّعة، تنوّعَ كلّ شخص. ويمكن لاحتفالاتٍ خاصّةٍ تتناسقُ ومختلِفَ مراحلِ التطوّر البشريّ أن تأتي ببعض المنفعة لتهذيب الإيمان وتربيته، وبالأخصّ لمرافقة التعليم المسيحيّ الذي لا يمكن الاستغناءُ عنه للأولاد والأحداث. ولكن يجب أن يكون واضحاً أن التنشئة على سرِّ المسيح هي كاملةٌ منذ تقبُّل الأسرار الثلاثة الأولى.

٥٢. رُتب الدخول في الحياة الرهبانيّة

على مرّ القرون، وبالأخص في نهاية الاضطهادات، انتظم العديدُ من المسيحيّين في جماعات مختلفة، واختاروا أن يشهدوا لانضمامهم الشخصيّ الجذريّ إلى ملكوت الله، فألّف البعضُ جماعاتٍ رهبانيّة، وآخرون اتخذوا شكلَ حياةٍ متوحّدة، أي النسك، كي يتكرّسوا بحريّة أوفر «للضروريّ الأوحد».

أشارت عدّةُ وثائقَ رسميّةٍ إلى أهميّة الحياة الرهبانيّة وإلى ملاءَمة تثبيت هذه الحياة في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة. فتمكن العودةُ إلى القرار المجمعي «**الحركة المسكونيّة**» (الرقم ١٥)، والى «م.ق.ك.ش.» الذي يكرّس للموضوع سبعين قانوناً (٤٣٣-٥٠٣)، وإلى التوسّع المستفيض الوارد في الرسالة الرسوليّة «**نور الشرق**» (الأرقام ٩-١٦).

مسيحيّو الشرق يشهدون شهادةً مشتركةً للتقليد الذي يعتبر التنشئةَ على الحياة الرهبانيّة مطابقةً تمامَ التطابق للتنشئة العِماديّة، بواسطة تعابيرَ ورموزٍ وحركاتٍ تذكّر بتلك التي تُستخدَم للتنشئة على الحياة المسيحيّة.

تشيرُ الرتبُ الليترجيّة للبس الثوب الرهبانيّ إلى أنّ تقبّلَ الثوب يعني التماهيَ بالسيّد الناهض من بين الأموات بحيث يستطيع الراهبُ أن يقولَ مع بولس: «لستُ أنا حيّاً

بعد، بل هو، المسيحُ، يحيا فيّ» (غل ٢: ٢٠). فالراهبُ، في الواقع، يلبسُ جدّة حياة السيّد الناهض من بين الأموات، وبفضل القوّة التي وهبَه إيّاها الروحُ القدس يشرعُ في الصراع ضدّ قوى الشرّ، كي يمتدّ انتصارُ الفصح حتى أقاصي الأرض، لجد الآب الواحد.

وتشكّل كتبُ الرتب التي تولجُ إلى الحياة الرهبانيّة في مختلف الكنائس الشرقيّة جزءاً مكمّلاً للتقاليد الليترجيّة الخاصّة، ومصدراً ثميناً لرسم معنى الرهبانيّة المسيحيّة السامي.

لذلك، فمن الضروريّ المحافظةُ على تلك التقاليد واستخدامُها للنذورات محض الرهبانيّة واستلهامُها أيضاً لنذورات رهبنات الكنائس الشرقيّة وجمعيّاتها الرهبانيّة.

الفصل الثامن

الليترجيّا الإلهيّة

٥٣. معنى الليترجيّا الإلهيّة

الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة هو محورُ العبادة المسيحيّة. هذا العنوان الوارد في «م.ق.ك.ش.» ليس حصريّاً. وإذ إنه مُميِّزٌ في الكنائس اليونانيّة الأصل، نجده أيضاً في تقاليدَ أخرى، ولكن إلى جانب تعابيرَ ثانية، مثل: ذبيحةٌ، وتقديسٌ، وسرٌّ، وتقدمةٌ أو قربان، وإفخارستيّا أو حمدٌ لله، وكسرُ الخبز، وغيرها.

وحتى لو ذكّرت تلك التعابير، تذكيراً أكثر مباشرةً، بسرّ ربّنا ودمه، إلاّ أنها تدلُّ في الوقت عينه على الاحتفال في جملته، مرتكزاً على القسمَين اللذين يتمحور الأولُ منهما حول كلام الله، والثاني حول الرتبة الإفخارستيّة.

يعلّمنا الدستورُ المجمعيُّ عن الليترجيّا المقدسة أن المسيحَ حاضرٌ في كلمته، فإنه هو المتكلّم عندما تُقرأُ الكتب

المقدّسة في الكنيسة[٥٢]. ويوضح أيضاً أن الوعظ يشكل جزءاً منمّماً من العمل الليترجيّ. لذلك يشدّدُ الدستورُ على أن يؤدّى الوعظ بأمانةٍ وبطريقةٍ لائقةٍ وأن يستقي تعابيره، قبل كل شيءٍ، من مصادر الكتاب المقدّس والليترجيّا، لأنه تبشيرٌ بعجائب الله في تاريخ الخلاص[٥٣]. لذلك يُعنى بألاّ تُهملَ البتّة العظة في أثناء الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة مع الشعب، أقلّه يوم الأحد، وأيام الأعياد البطالة.

غِنى القسم الثاني من الليترجيّا الإلهيّة، وبالأخصّ غنى المناولة التي تكلّله، عبّرت عنه، بطريقةٍ رائعة، كلماتُ نيقولا كاباسيلاس التالية: «سرُّ المناولة بلغَ حدّاً من الكمال، أكثر من أيّ سرٍّ آخر، حتى إنه يقود إلى قمّة الخيرات جميعها: فهناك أوجُ كلِّ رغبةٍ بشريّة، به نبلغ الله، والله يتّحد بنا اتحاداً كليّ الكمال (...) . ولمّا كان من العسير أن نسموَ فنشاركه حياته، تنازل هو إلينا ليقاسمَنا وضعَنا ويتّحدَ، أشدَّ ما يكون الاتحاد، بالطبيعة التي اتّخذها، حتى إنه يهبُنا ذاته بالضبط معيداً إلينا الجسدَ والدمَ اللذين اتخذهما منا. وهكذا، فيما نتناول جسداً ودماً بشريَّين نتقبّل الله في النفس: جسدَ الله بقدر ما

[٥٢] راجع: المجمع الفاتيكانيّ الثاني، «**الليترجيّا المقدّسة**»، ٧.

[٥٣] **المرجع نفسه**، ٣٥؛ وأيضاً الرقم ٥٢.

هو جسدُ إنسان، دمَ الله ونفسه، روحَ الله وإرادتَه، بقدر ما هي دمُ إنسانٍ ونفسُه وروحُه وإرادتُه»[٥٤].

٥٤. الأنافورات في الليترجيّا الإلهيّة

في أثناء الاحتفال بالأسرار الإلهيّة يسطع نصُّ الأنافور مثل كنزٍ ثمين. تعود الأنافوراتُ الشرقيّةُ إلى العصور القديمة: فهي غالباً ما تُسنَدُ إلى الرسل، وفقاً لما تعي ذلك الكنائسُ وعياً حيّاً، أو إلى قدّيسين من الكنيسة الأولى، أو إلى أشخاصٍ آخرين لهم قدْرُهم في تاريخ الكنائس. فالأنافورات، هي، في عمل التقدمة، إعلانُ التسبيح والحمد لله والإبيكليس (Epiclèse)، أي استدعاءُ الروح القدس.

لُيعنَ بأن تُتاحَ إمكانيّةُ الاختيار بين العديد من نصوص الأنافورات، وفقاً للمناسبة، بالنَّهل من كنز الأنافورات، حسَب مختلفِ الكنائس. ويجب إعادةُ استخدام البعض منها، بعد أن أُهملَ حتى اليوم، ولمّا كان الأنافور آيةً حقيقيةً من آياتِ لاهوت شرح الأسرار، فيليقُ أن تُدرسَ الطرقُ الآيلةُ، على الأقلّ في بعض الظروف، إلى أن يُتلى بصوتٍ عالٍ، على مسمعٍ من المؤمنين. وليسهر الرعاةُ على أن

[٥٤] نيقولا كاباسيلاس، **الحياة في المسيح**، ٤، ١٠، ٢٦ في: سلسلة «**المصادر المسيحيّة**»، ٣٥٥، ص ٢٧٠، ٢٨٨.

يثقّفوا الشعب على اللاهوت المتوفّر، بطريقة ملحوظة، في تلك الأنافورات.

٥٥. مختلِف الأدوار في أثناء الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة

يعلن الدستور المجمعيّ في الليترجيّا المقدّسة أنّ «الكنيسة تحرص على ألاّ يحضرَ المؤمنون سرَّ الإيمان هذا حضورَ مشاهدين، غرباءَ وبُكمٍ، بل يشتركون بفعّاليّة في العمل الليترجيّ، وقد أجادوا فهمَ طقوسه وصلواته» (الرقم ٤٨). ويورد القانون ٦٩٩ من «م.ق.ك.ش.» التعليم نفسه، محدِّداً لكلّ مشاركٍ في الاحتفالات الإفخارستيّة الدور المميَّز:

- «**البند ١**: للأساقفة والكهنة وحدَهم حقُّ إقامة الليترجيّا الإلهيّة». وهذا يعني أنه لا تُمكن إقامتُها في غيابهم.

- «**البند ٢**: للشمامسة الإنجيليّين، بفعل خدمتهم الخاصّة، بعض النصيب في مشاركة الأساقفة والكهنة، في إقامة الليترجيّا الإلهيّة، وفقاً لما ترسمُه الكتب الطقسيّة».

- «**البند ٣**: جميعُ المؤمنين الآخرين، بفعل معموديّتهم ومسحهم بالميرون المقدّس، عندما يشاركون في الليترجيّا بالطريقة المحدَّدة في الكتب الطقسيّة أو في الشرع الخاصّ، فإنهم يشتركون فعليّاً في ذبيحة المسيح، ويكون اشتراكُهم

أكمل أيضاً إذا تناولوا، في تلك الذبيحة عينها، جسد الـــرب ودمه».

٥٦. الليترجيّا التي يحتفل بها الأسقف

يؤكّد نصٌّ من «**الليترجيّا المقدّسة**» مستوحىً مـــن رسائل القدّيس إغناطيوس ا

لأنطاكيّ ما يلي: «... إن أهمَّ مظهرٍ للكنيسة هـو في الاشتراك الكامل والفعّـــال لشـــعب الله المقـــدّس كلّـــه في الاحتفالات الليترجيّة نفســـها، ولاســـيَّما في الإفخارســـتيّا الواحدة، والصلاة الواحدة، حول المذبح الواحد حيثُ يـــترأس الأسقف يحيطُ به مجلس الكهنة والمعاونين» (الرقم ٤١).

وهذا يفرض بأن يُعتنى إلى أقصـــى حـــدٍّ بالحيـــاة الليترجيّة في الأبرشيّة حول الأسقف. لهذا السبب يجـــب أن تكون الكاتدرائيّة «المعبَدَ» الحقيقيَّ لكلّ كنيســـةٍ خاصّـــة: فيجب إذن أن يُحتفل فيها بالليترجيّا بطريقةٍ مثاليّة. وهذا كلّه يتوافق بروعةٍ مع مثاليّة الاحتفالات الليترجيّة التي نشـــهدها في بعض الأديار التي حافظت، على مرِّ الزمان، وفـــقَ تقليـــد الكنائس الشرقيّة، على تواصُلٍ حاصٍّ جدّاً مـــع احتفـــالات الكاتدرائيّات الطقسيّة.

٥٧. الاشتراك في التقديس

يوصي القانون ٧٠٠، البند ٢، مـــن «م.ق.ك.ش.» بالاشتراك في التقديس مع الأسقف أو مع كاهنٍ آخر، «كـــي تظهر ظهوراً ملائماً وحدةُ الكهنوت والذبيحـــة». ويُشـــير العديدُ من النصوص المجمعيّة إلى أن مثلَ هذا التصرّف يظـــهر وحدة الكنيسة جمعاء. إن في ذلك لعُرفاً بالغَ التعبـــير. إلاّ أنَّ هناك أسباباً تنصح بالعدول عـــن الاشـــتراك في التقديـــس، بالأخصّ عندما يكون عدد الكهنـــة والمشـــاركين متفاوتـــاً بالنسبة إلى عدد المؤمنين العلمانيّين الحاضرين. فعلى الاحتفال الليترجيّ، بصفته «إيقونة» الكنيسة، أن يحترم طبيعة الجماعـــة المنظَّمة تراتبيّاً، والتي تشمل ليس فقط الخدَمة المكرَّسين بـــل جميعَ الشعب الذين، تحت حمايتهم، يحيَون في المسيح.

وليُعنَ ألاّ يضطرَّ المشتركون في التقديس، بسبب كثرة عددهم، أن يتّخذوا لهم مكاناً في صحن الكنيسة حيث يجلـس المؤمنون، إذن خارج الهيكل بحيثُ يستحيل سيرُ الطقس سـيراً لائقاً. على كلٍّ، يُفضَّل الاشتراك في التقديس على ما يســـمَّى احتفالاتٍ فرديّة بدون الشعب. فَلْتُلغَ دائماً وقطعاً الاحتفالاتُ بالافخارستيّا الفرديّة والمستقلّة، وعلى عدَّة مذابح في المكـــان عينه والوقت عينه. ولا يطال هذا الحظرُ بـــالطبع الاحتفـــال المتزامن والمواقت، والمحضَّر مسبقاً في الغـــالب، بخاصّـــةٍ في التقليدين السريانيّ – الغربيّ والإثيوبيّ.

يحدّد القانون ٧٠١ من «م.ق.ك.ش.» الطريقة التي يجب أن يتمّ فيها الاحتفال المشترك بين أساقفة وكهنة من كنائس مختلفة ذات شرع خاصّ. فنذكّر، في هذا الصَدد، ونوصي بأن يُتحاشى كلُّ «توفيقٍ» ليترجيّ، وبأن يحافظ على الثياب الليترجيّة والشارات العائدة إلى الكنيسة ذات الشرع الخاصّ. فالقضيّة هي أن نظهر، بطريقةٍ معبّرةٍ جدّاً، تنوّعَ التقاليد الكنسيّة وتوجُّهها الواحد في وحدة الكنيسة. إنما هذا رمزٌ يعبّر عن الوحدة العتيدة، في تنوّع الأشكال، ووسيلةٌ لحماية الكنائس الشرقيّة وخصوصيَّتها ضدّ كلّ استيعاب، بالأخصّ حيث تشكّل تلك الكنائس أقليّةً.

في العديد من المرّات، عندما تدرس «م.ق.ك.ش.» مختلف طرق المشاركة في الاحتفال الإفخارستيّ، تذكّر بضرورة احترام تعليمات الكتب الطقسيّة وأحكام الشرع الخاصّ[٥٥]. وما يشار إليه هنالك يصلح أيضاً للمشاركة في الذبيحة، نظراً إلى أن أساليب تطبيقها تتنوّع تنوّع الكنائس ذات الشرع الخاصّ وتنوّع الطقوس. والجميع يعلم أن التطبيق العمليّ الذي تبنّته الليترجيّات الغربيّة قد استوحته في معظمه من العوائد البيزنطيّة، التي فسّرها مع ذلك على ضوء المقتضيات الخاصّة فنجمت عنها من ثمّ نتيجةٌ مختلفة. إن

[٥٥] راجع مثلاً ق ٦٩٩، البندين ٢ و٣.

الاشتراك في الذبيحة الإفخارستيّة الواحدة يمكن أن يعبّر عنه بطرقٍ متنوّعة تكتسي كلٌّ منها قيمة مميّزة يجب الحفاظ عليها وتنميتها النظاميّة. والعودة إلى ما تفرضه الكتب الليترجيّة هي دعوة إلى أن تُفحص معطيات كلّ تقليدٍ فحصاً دقيقاً، وأن توضع الإرشادات التي تحترم الخطّ الأصيل.

٥٨. إلى من يعود توزيع الإفخارستيّا؟

يحدّد القانون ٧٠٩، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» أنه يعود إلى الكاهن توزيع الإفخارستيّا، أو حتى إلى الشماس الإنجيليّ، إذا كان الشرع الخاصّ للكنيسة ذات الشرع الخاصّ ينصُّ على ذلك. وتوكل الفقرة التالية إلى سينودس أساقفة الكنيسة البطريركية، أو إلى مجلس الرؤساء الكنسيّين، حقّ وضع النظم التي بموجبها يحقّ أيضاً للمؤمنين المسيحيّين توزيع الإفخارستيّا.

إن منح الشماس الإنجيلي، أو حتى مؤمنين آخرين، مهمّة توزيع الإفخارستيّا الإلهيّة يعود إذن إلى قواعد الشرع الخاصّ. إلاّ أنه من الضروريّ أن نذكّر أن تلك النظم يجب أن تتوافق والإطارَ المميّزَ للتقليد الليترجيّ الذي تندرج فيه. ويجب التذكير بأن جميع التقاليد الشرقيّة تشير إلى عظمة سرّ التناول المقدّس. ويصف أحدُ الشرّاح القدماء، من أصلٍ أشوريّ-كلدانيّ، تقدمَ القرابين المقدَّسة للمؤمنين، بالعبارات

التالية: «تحضر الأقداس على الصينيّة وفي الكأس، في مجد وعظمة، يحيط بها كهنةٌ وشمامسةٌ إنجيليّون، في تطواف عظيم. وتتقدّم جسدَ ربّنا آلافُ الملائكة وخدّام نار الروح، وهم يمجّدونه. فيبتهج جميع أبناء الكنيسة والشعبُ كلُّه عندما يرون الجسدَ قادماً من الهيكل»[٥٦]. وبالتالي فإن حصر توزيع الإفخارستيّا طبيعيّاً بالكهنة إنما يهدف إلى إظهار طابَعها المقدَّس حقاً. حتى إذا كان ذلك يُقصي إعلان معاييرَ أخرى، لا شكّ أنها مشروعة، ويَقضي بالتخلّي عن بعض أسباب الراحة، فإن كلّ تبديل في العُرف التقليديّ يهدّد بإدراج تطفّل غير معهود بالنسبة إلى الإطار الروحيّ الذي ذكرنا. فمن الملائم إذن أن صلاحية توزيع الإفخارستيّا الممنوحة لمن ليس أسقفاً أو كاهناً أو شماساً إنجيليّاً - إذا كان ذلك عُرفاً يحدّده الشرع الخاصّ في كنيسة ذات شرع خاصّ - يجب ألاّ تمارس إلاّ في حالات الضرورة القصوى.

٥٩. يجب أن توزَّع الإفخارستيّا تحت شكلَيّ الخبز والخمر

يجب أن توزَّع الإفخارستيّا تحت شكلي الخبز والخمر المقدَّسين. فليُتخلَّ إذن، بدون إبطاء، عن عادة توزيع المناولة

[٥٦] **شرح أسرار الكنيسة** المنسوب إلى نرساي النصيبيّ. منشورات أ. ومغانا، *Narsai Doctris Syri Homiliæ Carmina Mosul*، ١٩٠٥، المجلد ١، ص ٢٩٤.

تحت شكل الخبز المقدّس وحده، كما يمكن أن يحصل ذلك أحياناً اليوم، بتأثير لاتينيّ. إن مثل تلك الممارسة يجب أن تعتبر كتجديدٍ حديث العهد، غريب كليّاً عن التقليد الشرقيّ. ويمكن أن يسهّل إعادة توزيع الإفخارستيّا نظاميّاً تحت الشكلين استخدام أواني مقدّسة مناسبة، مع الحفاظ على نظم التقليد الطقسيّ الخاص وعوائده.

٦٠. يجب أن توزّع الإفخارستيّا في أثناء الليترجيّا الإلهيّة

تُعتبرُ مشاركةُ المؤمنين المسيحيّين في ذبيحة المسيح أكمل إذا تقبّل المؤمنون جسدَ الربّ، في أثناء الاحتفال، بعد مناولة الكاهن وخلال الذبيحة نفسها. إن مثل هذه الصيغة المستوحاة من الرقم ٥٥ من [الدستور العقائدي] «**الليترجيّة المقدّسة**» تظهر أهميّة التناول المقدَّس، وفي الوقت عينه، ارتباطه بتقدمة الذبيحة الإفخارستيّة. لذلك يحدّد القانون ٧١٣، البند ١ من «م.ق.ك.ش» أن الإفخارستيّا الإلهيّة يجب «أن توزّع في أثناء الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة، ما لم يكن هنالك سببٌ صوابيٌّ يدعو إلى غير ذلك». ويجب أن يُعتبر مثل هذا العرف وكأنه وحدَه الاعتياديّ، ما عدا حالة مناولة المرضى الغائبين، أو التناولَ في ليترجيّا الأقداس السابق تقديسُها، في الأيام التي لا يُحتفل فيها بالليترجيّا.

٦١. لتكن الإفخارستيّا الموزّعة هي تلك التي قُدّست في أثناء الاحتفال نفسه

تفترض جميعُ ترتيبات الكتب الطقسيّة أن الخبز السماويَّ الموزّع على المؤمنين هو ذلك الذي كُرِّس في أثناء الاحتفال نفسه دون اللجوء إلى ما يُدَّخر من قربان، إلاّ في حالة الضرورة القصوى. ولقد ذكّر الحبران الأعظمان بيندكتوس الرابع عشر[٥٧] وبيّوس الثاني عشر[٥٨]، وبشدّة، بهذا الأمر الذي يتوافق تمامَ التوافق والتقليدَ الشرقيّ. فمن الواضح أن المشاركين في الوليمة يجب أن يحصلوا على قوتهم من المائدة التي هم حاضرون عندها، وليس من مائدة أخرى. وكلُّ عُرفٍ مضادٍّ يشوّه معنى الإفخارستيّا التي لا تعني فقط اشتراك الفرد الخاصّ مع الربّ يسوع، ولكن أيضاً المشاركة المتبادلة في جسد المسيح السرّيّ لجميع المتناولين، بالاشتراك في جسد المسيح الإفخارستيّ الواحد. والعُرف الجيّد ينطبق بالأخصّ على معنى طقوس كسر الخبز الموجودة منذ تأسيس سرّ الإفخارستيّا، وهي على درجةٍ من الأهمّيّة حتى إنها أصبحت تعبيراً ملموساً للدلالة، منذ الاحتفال الإفخارستيّ في عهد

[٥٧] راجع بيندكتوس الرابع عشر، الرسالة العامة Certiores Effecti (١٣ تشرين الثاني ١٧٤٢)، ٣: أعمال البابا بيندكتوس ١٤، المجلد ١، ص ٢١٢.

[٥٨] راجع البابا بيوس الثاني عشر، الرسالة العامة Mediator Dei (٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٧)، ١١٨: أ ك ر ٣٩ (١٩٤٧)، ٥٦٤-٥٦٦.

الرسل، أنّنا بحضرة الخبز المقدّس الوحيد، الذي يُكسرُ ويوزّع، ودمِ الكأسِ الوحيدة المهراقِ لأجل الجميع والمقدَّمِ للجميع من أجل الخلاص.

٦٢. الصوم الإفخارستيّ

كان التقيّد المتشدّد بالصوم الإفخارستيّ تقليداً شاملاً، وإن كان متنوّعاً في أشكاله، في جميع الكنائس الشرقيّة والغربيّة حتى الإصلاحات الأولى التي قام بها، في هذا الموضوع، البابا بيّوس الثاني عشر. كان الصوم يعبّر، ولا يزال حتى اليوم، عن الاهتمام بتحضير روحيّ جدّيّ لتقبّل الإفخارستيّا، الخبز المحيي النازل من السماء. ورغبةً في تسهيل البلوغ إلى الإفخارستيّا، قُلّصت كثيراً تلك الممارسة في الكنيسة اللاتينيّة. وعلى غرارها سار بعضُ الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة، فيما حافظت الكنائس غيرُ الكاثوليكيّة على عوائدها، وإن كان ذلك لربّما بطريقة أقلِّ صرامةً. إن تبديل نظام الصوم الإفخارستيّ أسهم في تعزيز مشاركة أكبر في الإفخارستيّا، ولكنه ساعد أحياناً في إضعاف وعي القيمة الخارقة ومعنى السرّ المختفى به. ويعيد القانون ٧٠٧، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» إلى الشرع الخاصّ في تحديد ما يلزم من قواعد في هذا الشأن. فيجب تقويم مناسبة إمكانيّة إعادة نظم الصوم القديمة، ولو جزئيّاً، في الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة،

مع الأخذ بعين الاعتبار، في الوقت نفسه، بمعنى الممارسة التقليديّة التي لا تتناسب دوماً بدقّةٍ والحساسيّةَ اللاتينيّة، وبضرورة التكيّف مع تبدّل أوضاع حياة العالم الحاضر.

٦٣. الأيام المسمّاة «غير ليترجيّة»

يؤكد القانون ٧٠٤ من «م.ق.ك.ش.» أنه «تُمتدَح إقامة الليترجيّا الإلهيّة جميعَ الأيام، ما عدا تلك التي يستثنيها ما ترسمه الكتب الطقسيّة في الكنيسة ذات الشرع الخاص التي ينتمي إليها الكاهن». ولكي يحدّد ما هي الأيام «غيرُ الليترجيّة» يُعيد القانون إلى ما ترسمه الكتب الطقسيّة. وتلك التعليمات ليست هي نفسُها في مختلف الكنائس ذات الشرع الخاصّ، أو بأكثر وضوحاً، لكبرى عائلات الكنائس الشرقيّة [الطقسيّة]. ويجب الإقرار أن تلك التعليمات، وإن كانت واردةً في الكتب الطقسيّة، وهي من ثمّ سارية المفعول في العديد من الكنائس ذات الشرع الخاصّ، إلاّ أنها غالباً ما عفّى عليها الزمن في الوقت الحاضر، تحت تأثير التقليد اللاتينيّ أيضاً. غالباً ما يجرّ هذا الزوال، مع فقدان تقليد الأيام «غير الليترجيّة» القديم، إلى التخلّي عن الاحتفال بليترجيّا «الأقداسِ السابقِ تقديسُها». وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار بُعدَ الإفخارستيّا كفرحٍ وعيدٍ، والذي يُشعر به كحدَثٍ لا كعادة، والذي عاشته المسيحيّة القديمة، وحافظت عليه عدّةُ ليترجيّات

شرقيّة، نرى أن إهمال مثل تلك الممارسة يُسهم في انتقاص كاملِ معنى الليترجيّا الإلهيّة المحتفل بها، بطريقةٍ تامّةٍ واحتفاليّة، كختامٍ وحاتمٍ لمسيرةِ تحضيرٍ كاملة، تميّزها احتفالاتٌ من أنواعٍ مختلفة. لذلك ولاستعادة عنصرٍ بمثل هذه الأهميّة من ميراث الكنيسة غير المتجزّئة، تجب المبادرة إلى استعادة نظام الأيام «غير الليترجيّة»، حيثما انقرضت في أوقاتٍ حديثةِ العهد نسبيّاً.

٦٤. الآحاد والأعياد المقرّرة

يعلن القانون ٨٨١، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» أنه «يجب على جميع المؤمنين أن يشتركوا في الليترجيّا الإلهيّة أيام الآحاد والأعياد المقرّرة، أو في إقامة الصلوات الطقسيّة بحسب أحكام كنيستهم ذات الشرع الخاصّ أو عُرفها المشروع». ويضيف البند ٢ أنه «لكي يكون القيامُ بهذا الواجب أكثرَ سهولةً على المؤمنين، يحدَّد أن الميقات الصالحِ [لذلك] يمتدُّ من صلاة غروب عشيّة [اليوم السابق] حتى آخر نهار الأحد أو العيد المقرَّر». وهكذا يوعز قانون «م.ق.ك.ش.»، مستوحياً الرقم ١٥ من «**الكنائس الشرقيّة**»، أنه من الممكن إيفاءُ فرض يوم الأحد، إما بالمشاركة في الليترجيّا الإلهيّة، وإما بالمشاركة في الصلوات الطقسيّة. إن مثل هذه الإمكانيّة تشدّد على أهميّة الصلوات الطقسيّة. وبهذه الطريقة تتحقّق إمكانيّة

الاحتفال بها، في الساعة المحدّدة، بحيث تتوافق النصوصُ تمام التوافق مع الزمن الذي فيه يُحتفل بها. تبدأ الدورة اليوميّة، في الواقع، بصلاة الغروب، وتمتدُّ إلى الليل، حتى تبلغ أوجَها صباحاً في الذبيحة الإلهيّة أو التقدمة. فإذا ما احتُفل بأجزاء الصلوات الطقسيّة في ساعاتٍ غير تلك التي حدّدها بنية النصّ الكاملة يُخشى أن يتزعزع توازنُ الأجزاءِ المختلفة، وأن يُقلَّص ملءُ كمال السرّ الإفخارستيّ التي تشكّل هي تحضيراً له واكتمالاً. ويجب على الراعويّة الليترجيّة الأصيلة أن تتنبّه إلى تشعّب القضايا وألاّ تكتفي بأن تقلّد ببساطة الممارسة الغربيّة. إن أحكام الكتب الطقسيّة التي حرّرت وفقاً لتقاليدِ مختلفِ الكنائس الأصيلة، يجب أن تكون المراجعَ المباشرةَ لإعادةٍ رشيدةٍ للأعراف.

٦٥. أزمان الاحتفال وأماكنه

بالنسبة إلى زمن الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة ومكانه، وخلافاً لما تنصّ عليه أحكام القانونين ٩٣١-٩٣٢ من «مجموعة الحقّ القانوني» التي تصلح للكنيسة اللاتينيّة جمعاء، لا يعطي القانون ٧٠٧، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» نظماً تصلح لجميع الكنائس الشرقيّة، بل على العكس من ذلك، يطلب إلى مختلف الشرائع الخاصّة أن تحدّد نظماً بهذا الشأن. وعلى كلّ

حال، لنُحصر بأقلّ ما يمكن الاحتفالاتُ الإفخارستيّة خارج المكان المقدّس.

وترتبط أيضاً ساعةُ الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة بنظام الصوم، الذي يختلف مع الأيام ودورات السنة.

ولْيُتحاشَ أيضاً التكرارُ المفرطُ للاحتفالات الإفخارستيّة أيامَ الأعياد. إن مثل هذا التكرار يمنع من جهة إقامة الصلوات الطقسيّة؛ ومن جهة أخرى يؤمّن حضورُ المؤمنين الكثيفُ واحتشادُهم الأكبر مهابةً أعظم للطقس.

ويمتنع الكهنة بالأخصّ عن الاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة، عدّة مرّاتٍ في النهار، بدون سببٍ رعويّ محدّد. وكلُّ ممارسة تناقض هذا المبدأ يجب أن تسمح بها وتراقبها السلطة الأسقفيّة.

الهبة التي تمنحُ للمحتفل، من أجل ذكرانيّة خاصّة في الليترجيّا الإلهيّة، يجب أن تندرج في إطارٍ أوسعَ لتقدمة الذات والحياة نفسِها للآب، وللتضامن مع الكنيسة جمعاء، وبالأخصّ مع الفقراء، ولضرورة القيام بأَوْد الكاهن وبمصاريف الخدمة. أما هبات المؤمنين المحتملة للاحتفال بالليترجيّا الإلهيّة على نيّاتهم الخاصة[٥٩]، فيجب أن تخصَّص لأهدافٍ يحدّدها الأسقف المحليّ، في حال أقيم أكثر من احتفال في اليوم.

[٥٩] راجع «م.ق.ك.ش.»، ق ٧١٥، البند ١.

٦٦. الثياب الليترجيّة

ارتداءُ ثوبٍ خاصٍّ لإقامة عملٍ مقدّس، يعني الخروج من مقاييس الحياة اليوميّة العاديّة للدخول في حضرة الله، في أثناء الاحتفال بالأسرار الإلهيّة. استناداً إلى الرمز الذي يعلّمه بولس: «لأنكم، أنتم جميعَ الذين اعتمدوا للمسيح قد لبستم المسيح» (غلا ٣: ٢٧). وكتب نرسيسُ شنورَلي الأرمنيّ، الكاثوليكوسُ من ١١٦٥ حتى ١١٧٣، قائلاً: «لا يظنّنّ أحدٌ أنه نافلٌ وباطلٌ سرُّ الثوب الكهنوتيّ. إنّ فيه، تقيّداً من الإنسان الخارجيّ لمن هم في خدمة ما هو لله. إنّنا نتحدّث أيضاً عن الإنسان الباطن، الذي يرى في الطقس الخارجيّ صورةً للزينة الروحيّة المشرقة»[٦٠].

يعود إلى الشرع الخاصّ تحديدُ الأثواب الليترجيّة الواجبِ ارتداؤها في أثناء الاحتفالات. وهي عادةً مصنّفةٌ في الكتب الطقسيّة، أو عند الاقتضاء في أنظمةٍ أخرى ذات طابَع ليترجيّ، تفرضها السلطات المختصّة. وفي هذا المضمار أيضاً لتراعَ الأعراف التقليديّة، مع الحفاظ على كل قيمة الخطاب الليترجيّ الخاص، وبالامتناع عن محاكاة أعراف كنائسَ أخرى. وحدَها أسبابٌ قاهرة وظروفٌ استثنائيّة يمكنها أن

[٦٠] نرسيس شنورلي، **الرسالة الجامعة**، طبعة القدس ١٨٧١، ص ٥٣.

تسمح بممارسة مختلفة. وإذا ما أُدخلت تبديلاتٌ غيرُ مناسبة على الثياب الليترجيّة، فتجب العودة إلى الأنظمة التقليديّة.

أما الثوبُ الإكليريكيّ غيرُ الليترجيّ فينبغي على كلّ كنيسة ذات شرعٍ خاصّ أن تستعيد له الشكل المطابق للعرف الشرقيّ التقليديّ.

٦٧. تحضير الخبز والخمر

يذكّر القانون ٧٠٦ من «م.ق.ك.ش.» أن «القرابين المقدّسة التي تقدَّم في الليترجيّا الإلهيّة هي خبزٌ من حنطةٍ خالصة (...) وخمرٌ طبيعيٌّ مستخرجٌ من عصير الكرمة».

ويتناول القانون ٧٠٧، البند ١، «صُنعَ الخبز». بما أن الكنائس المسيحيّة تعرف عدّة طرقٍ لتحضير الخبز المعدّ للإفخارستيّا يطلب القانون التقيّد بأحكام الشرائع الخاصّة المختلفة. إن الاختلاف الأكثر ظهوراً، من هذا القبيل، هو القائم بين الخبز الخمير الذي تستعمله تقليديّاً غالبيّة الكنائس الشرقيّة، والخبز الفطير الذي يستخدمه الأرمن واللاتين. لقد حدث في الماضي جدالٌ حول رمزيّة كلٍّ من العُرفَين، غالباً ما رافقته حربٌ كلاميّة، مضفياً عليه أحياناً تفسيراتٍ لاهوتيّة. وبما أنه، في هذا الميدان، لكلّ عُرف قيمته، حدّدت «م.ق.ك.ش.» أن كلّ كنيسة ذاتِ شرع خاصٍّ تحافظ على

ما ورثته من آبائها، لأن مثل هذا العُرف يعبّر، رمزيّاً، عن المظاهر المكمِّلة للسرّ الإفخارستيّ.

وهناك اختلافاتٌ أخرى، منها الشكلُ الواجبُ أن يُعطى للخبز المعدِّ للاحتفالات الإفخارستيّة، والأختامُ التي يجب أن يُوسَم بها، والصلواتُ التي ترافق تحضيره، والأسماءُ التي تُدعى بها، إلخ ... فلتتَّبَع، في كلٍّ من هذه التفاصيل، ترتيبات الكتب الطقسيّة.

أما الخمر، فيلاحظ أن ما ترسمه «م.ق.ك.ش.» يبتعد عمّا ورد في القانون ٩٢٤، البند ١ من «مجموعة الحق القانونيّ»، الذي يحدّد أن الخمر يجب أن يمزج بقليل من الماء. فلم تلحظ «م.ق.ك.ش.» هذا المزج لأنه ليس من عُرف الكنيسة الأرمنيّة. لذلك يجب ألاّ يُعتبر كقانون يصلح لجميع الكنائس الشرقيّة.

ويجب إعادة رتبة الزاون (أي الماء الحارّ الذي يُضاف إلى الكأس قبل المناولة)، وهي رتبة حافظت عليها الكنائس المتفرّعة من كنيسة القسطنطينيّة وأهملتها - ويا للأسف! - بعض الكنائس الروميّة - الكاثوليكيّة. وليُفعل كذلك لبعض عناصر الاحتفال المهمّة الأخرى، في حال أُبطل استعمالُها.

٦٨. استخدامُ الثياب الليترجيّة والخبز الخاصّة بالطقس

في ما يخصُّ صنعَ الخبز والثيابَ الليترجيّة، يسمح القانون ٧٠٧، البند ٢، بأن «تُستعمل الثيابُ الليترجيّةُ والخبزُ العائدة إلى كنيسة أخرى ذاتِ شرعٍ خاصّ، إذا لم يتوفّر للمحتفل ما لكنيسته الخاصّة من ثيابٍ وخبز، مع تجنّب استغراب المؤمنين».

يجب أن نشير إلى أمرين يحدّان هذا الجواز. إنّا نفهم هذا الاستثناء، لأن عدم التمكّن من الحصول على خبزٍ أو ثيابٍ مناسبة يجب ألاّ يمنع الاحتفال الإفخارستيّ، لمنفعة المؤمنين، التي تعلو كلَّ الأنظمة الضروريّة مع ذلك في أوضاعٍ عاديّة. لكن يُستخدم مثلُ هذا الاستثناء في أحوالٍ استثنائية لا يُمكن أن تعمَّم، من مثل حالات الاضطهاد، ومن ثمّ، التخفّي؛ وهذا الاستثناء لا يعفي أكيداً من واجب القيام بما أمكن لتحاشي هذه المخالفة، فيكون الخبزُ والثيابُ موافقةً للأعراف الليترجيّة الخاصّة. وهذا ما نفهمه بالأكثر في وضع الخبز، لأن تحضيره للإفخارستيّا يشكل جزءاً لا يتجزّأ من الاحتفال، ولا يمكن أن يُهمل إلاّ لأسبابٍ خطيرة. وهكذا، باستثناء الليترجيّا الأرمنيّة، وفي الظروف الاستثنائية التي أوردنا، يُستخدَم الخبزُ العاديُّ الخمير، في حال عدم وجود «**قرابين**».

أمّا الحدُّ الثاني فهو وجوب تجنّب استغراب المؤمنين. لنحترس من الاستحداثات التي يُخشى سؤُ فهمها، لأنها تتناقض وما يعرفه المؤمنون تقليديّاً. ومثل هذا الانتباه يجب أن يشمل أيضاً ردّات فعل المؤمنين غير الكاثوليك، بالأخصّ أولئك الذين ينتمون إلى التقليد عينه.

٦٩. الإحالة إلى الشرع الخاصّ لا تدني الأهميّة

مجملُ الأحكام الواردة في القانون ٧٠٧ ثانويّةٌ نسبيّاً، بالنظر إلى تشعّب سرّ الإفخارستيّا. بالرغم من ذلك، إنه مملوءٌ معانيَ روحيّةً تندرج في إطارٍ متماسك، يصلح للإدخال، بطريقةٍ مثلى، في كامل معرفة السرّ الإفخارستيّ.

انتزاعُ بعض تلك الأحكام يقود إلى خطر إضعاف الإطار العام. والقانون ٧١٣، البند ٢ يذكّر بأهميّتها إذ يشدّد على أن «يتقيّد المؤمنون تقيّداً شديداً بقواعد الكنيسة ذات الشرع الخاصّ التي ينتمون إليها، ليس ضمن حدود ولاية هذه الكنيسة وحسب، بل بقدر الإمكان، في كلّ مكانٍ من الأرض».

لاحظنا، [في ما سبق]، كيف أن القانون ٧٠٧ يعيد، في كلّ كنيسة ذاتِ شرعٍ خاصّ، إلى الشرع الخاصّ الذي عليه أن يحدّد النظم الواضحة بشأن الاحتفالات الإفخارستيّة. فهذا لا يقلّل من شأنها، بل يعبّر عن الإرادة في الحفاظ سالمةً

على خصوصيّة مختلف التقاليد الأصيلة وتنوّعها. وبالحقيقة، يعبّر الشرعُ الليترجيُّ الخاصُّ ويضمنُ هيئةَ وأصالةَ كلّ تقليد أو عائلة ليترجيّة خاصّة.

الفصل التاسع

الدرجات المقدّسة

٧٠. الخدّام المكرَّسون والليترجيّا

يؤكد القانون ٣٢٣، البند ١، من «م.ق.ك.ش.» أن الإكليريكيّين المدعوّين أيضاً خدَمة مكرَّسين، هم «مؤمنون يُنتدبون... ليصيروا خدَمةً للكنيسة بمشاركتهم في رسالة المسيح الراعي وسلطانه». فالخدَمة المكرَّسون يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالليترجيّا، إمّا لأن العديد من وظائفهم يتمّ في الليترجيّا، وإمّا لأنهم في تلك الليترجيّا عينها يمارسون دوراً يتميَّز عن دور المؤمنين الآخرين، وإمّا لأنهم غالباً ما يحتكّون بتلك الليترجيّا.

٧١. تثقيف الخدَمة المكرَّسين الليترجيّ

ليُعنَ، في تثقيف الخدَمة المكرَّسين، أن ينشّئوا تنشئة متنامية، كي يشاركوا داخليّاً في الأسرار المقدَّسة وفي ذلك الذي يعمل فيهم. ولكي يستطيعوا أن يعلّموا الأسرار للشعب، عليهم أن يحيَوا بطريقةٍ مثاليّة علمَ الأسرار نفسه. ليكن دورهم في الليترجيّا ينبوعاً وغذاءً ومثالاً لحياة تتقبل كليّاً

نعمة الربّ. وعلاوةً على ذلك، لينشّئوا تنشئةً كاملةً على معرفة الليترجيّا المقدَّسة معرفةً دقيقةً وثابتة وعميقة، في كل أشكالها اللاهوتيّة، وروحانيّتها، وكذلك في احتفالاتها.

ويُشار أيضاً إلى أهمية الحياة الليترجيّة في القوانين التي تتحدّث عن الإكليريكيّات. ففيها يؤكَّد أن الليترجيّا يجب أن تكون منطلقَ الحياة وقمّتها (ق ٣٤٦، البند ٢، ٢°)، وأنه يجب أن تدرَّس كينبوع ضروريّ للعقيدة وللروح المسيحيّة الحقّ (ق ٣٥٠، البند ٣)، وأن الراغبين في الكهنوت، عليهم أن يجدوا فيها الغذاءَ لحياتهم الروحيّة (ق ٣٤٦، البند ٢، ٣°).

فمن الضروريّ إذن أن يُحتفل بالحياة الليترجيّة، في الإكليريكيّات الشرقيّة وفي معاهد تنشئة النسّاك والرهبان الشرقيّين، بأعظم ما تكون الدقّة ودائماً في شكلها الكامل، بحيث يستطيع الراغبون في الكهنوت أن يتأدّبوا بتأديبها ويتعلّموها في كلّ غناها وكمالها، مفسحين المجال المطلوب ليس فقط للإفخارستيّا، بل أيضاً للفرض الإلهيّ.

يجب أن تكون الليترجيّا المنبع الحقيقيّ للروحانيّة التي ينشَّأُ عليها الراغبون في الكهنوت. يجب أن تشكل العنصر الذي يوحّد ما يتعلّمونه، والمكان الذي تصبح فيه العقيدةُ احتفالَ تسبيحٍ وشكران، وتبدّل فيه النعمةُ الحياة.

إن مثل هذه الأهميّة المعطاة لليترجيّا سوف تسمح للراغبين في الكهنوت أن ينهلوا من معينها بالكمال ما هو ضروريٌّ لحياتهم الداخليّة، ويتحاشوا عن نشدانها في ميادين غريبةٍ عن تناسق ميراثهم الخاصّ. ويفرض القانون ٣٤٣ بأن ينشّأ جميع الراغبين في الكهنوت، كلٌّ بحسب طقسه الخاصّ حتّى إذا قُبلوا في إكليريكيّة تابعةٍ لكنيسةٍ أخرى ذاتِ شرعٍ خاصّ، أو في إكليريكيّة مشتركة لعدّة كنائس ذاتِ شرعٍ خاصّ، ويشجب القانونُ أيَّ عادةٍ مخالفة. ويشمل هذا القرار كلَّ أبعاد إرث الكنائس الشرقيّة الخاصّ: اللاهوتيَّ والروحانيَّ والنظاميَّ، ولكن يشمل بأسمى طريقة البعدَ الليترجيّ.

٧٢. تفصيل الدرجات المقدّسة

تشرح «م.ق.ك.ش.» أن الإكليريكيّين الذين يجمع بينهم تآلف تراتبيٌّ ويتكوّنون بالسيامة المقدّسة في مختلف درجات الكهنوت، يشاركون بأوجهٍ مختلفة في الخدمة الكنسيّة الواحدة التي وضعها الله[٦١]. ومن جهة أخرى يرى القانون نفسه إمكانيّة وجود خدَماتٍ أخرى، علاوةً على الدرجات السابقة، تدعى الدرجات الصغرى.

[٦١] راجع القانونين ٣٢٤ و٣٢٦ من «م.ق.ك.ش.».

يحدّد القانون ٣٢٥ أن «الإكليريكيّين يتميّزون، بفعل الرسامة المقدّسة، بين أساقفة وكهنة وشمامسة إنجيليّين». ويضيف القانون ٣٢٧ أنه إذا جرى، علاوةً على هؤلاء، أن يُقبلَ أو يُنشأ خدَمةٌ آخرون، كي يخدموا شعب الله أو يمارسوا وظائفَ في الليترجيّا المقدّسة، ينتظمون في درجةٍ دُنيا ويُدعَون عموماً خدَمةً أدنَين. ويفرض القانون أن وضعهم يسوسه «فقط الشرعُ الخاصُّ لكلّ كنيسة ذاتِ شرعٍ خاصّ». ويريد القانون بذلك أن يُحترم التقليد الخاصُّ لكل كنيسة ذات شرعٍ خاصّ.

٧٣. من انتظم في درجةٍ دنيا لم يعد علمانيّاً

فيما «مجموعة الحق القانونيّ» تتحدّث عن خِدَمٍ يمكن أن يضطلع بها علمانيّون بطريقة دائمة «حسبما يفرض الطقس الليترجيّ» (ق ٢٣٠، البند ١)، تُدرج الدرجاتُ الدنيا، على العكس من ذلك، وفقاً للدرجة الخاصة في التراتبيّة الكنسيّة. فمن ينال هذه الدرجات لا يعود إذن من بعدُ علمانيّاً، ولكن يُصبح عضواً في ما تسمّيه نصوصُ العديد من الكنائس الشرقيّة الليترجيّة «إكليرساً» أو «الدرجة المقدّسة». الفارق بين الدرجات الدنيا والخدَم يسبّب عواقبَ حتى في تفسير القانون ٣٥٨ من «م.ق.ك.ش.»: فهو يؤكّد أن الراغب في الكهنوت «ينتمي كإكليريكيّ إلى أبرشيّة برسامته

شماساً إنجيلياً، ما لم يكن قد انتمى من قبلُ إلى تلك الأبرشيّة عينها، على قاعدة الشرع الخاصّ للكنيسة ذاتِ الشرعِ الخاصّ». هذه الإحالة إلى قواعد الشرع الخاصّ يترجّع صداها في القانون ٣٢٧ الذي يفرض أن جميع الذين «ينتظمون في درجةٍ دنيا ويُدعون عموماً خدَمةً أدنين (. . .) يسوسُهم فقط الشرع الخاصُّ لكنيستهم ذاتِ الشرع الخاص». فمن اللائق إذن أن يحصل الانخراط في إكليرُس مختلف الأبرشيّات منذ لحظة الدخول في درجة دنيا، بحيث يُقبل الخادم، منذ ذلك الحين، بطريقة كاملة وثابتة في خدمة الأبرشيّة.

٧٤. المحافظة على العُرف القديم الخاصّ بالدرجات الدنيا

لا يليق أن تبدِّل مختلفُ الكنائس ذاتِ الشرعِ الخاصّ عوائدَها بشأن تقليد الدرجات الدنيا، ذلك التقليد الذي شاركت فيه، في زمن ما، جميعُ الكنائس؛ فهو يحتوي، في الواقع، على معنىً خاصّ. فبدلاً من التخلّي عنه، يجب على إصلاحات الشرع الخاصّ في مختلف الكنائس أن تعيدَه بالأحرى في إطار معنىً أعظم وحيويّة أكبر. وهذا ما يوصّى به أيضاً لأسباب مسكونيّة: إذا كان يقع على عاتق الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة تعزيزُ الوحدة بين الكنائس الشرقيّة، بما في

ذلك الأمانةُ الدينيّة للتقاليد القديمة[٦٢]، فإنه لا ينفع أن يدرج تمايزٌ في العوائد بالنسبة إلى الكنائس الأرثوذكسيّة، نظراً إلى أنها جميعها تتفرَّع من أصلٍ مشترك. فكلُّ تبديلٍ أُدرج في غير محلّه، في أوقاتٍ حديثةٍ نوعاً ما، يجب أن يُعادَ النظر فيه على أساس هذه المبادىء.

٧٥. تسهيل ممارسة حقيقيّة ومتناسقة للدرجات الدنيا

ليست الدرجات الدنيا والشموسيّة الإنجيليّة مجرّد معاملة بانتظار السيامة الكهنوتيّة. فهي تمنح صلاحيّةً لخدمة محدَّدةٍ في الكنيسة. وبصفتها تلك، يجب أن يمارسَها عمليّاً وبطريقة نهائيّة أولئك الذين لا يرغبون في البلوغ إلى الكهنوت؛ وبما يكفي من الاتساع أولئك الذين سيُرسمون كهنة. ويطبّق هذا بطريقة خاصّة على الشموسيّة الإنجيليّة. وبلوغاً إلى الهدف، لا يُتورّعنَّ من منح الدرجات الدنيا وحتى الشموسيّة الإنجيليّة، لجميع الذين يتحلّون بالأخلاق الحسنة ويعلنون عن رغبتهم في خدمة الكنيسة، بعد أن يستعدّوا كما يليق ويكونوا أهلاً للاضطلاع بالمهمّة الملقاة على عاتقهم، حتى إذا اضطرّوا أن يتابعوا حياتهم العيليّة ويمارسوا مهنتهم.

[٦٢] راجع ق ٩٠٣ من «م.ق.ك.ش.».

هذه الطريقة نحصل أيضاً على الخدَمة الضروريّين لحسن سير الليترجيّا، فتُهمل العادة المأخوذة أيضاً عن الكنيسة اللاتينيّة والتي تخلّت عنها في الوقت الحاضر بأن تُسند إلى خدَمة من درجة عالية إتمام مهمّة ليترجيّة محصورة بخدَمة من درك أدنى (الأمر الأكثرُ رواجاً هو قيام كهنة بوظيفة شمامسة إنجيليّين)، أو أن توكل إلى علمانيّين، بطريقة نهائيّة، وظائفُ ليترجيّةٌ منوطةٌ حصراً بخادم السرّ: فمن الواجب استئصال مثل هذه العوائد.

٧٦. الشموسيّة الإنجيليّة

وُضعت الشموسيّة الإنجيليّة، لا للبلوغ إلى الكهنوت، بل لخدمة الأساقفة والكهنة. في ذلك العهد، اعتُبر الشمامسة الإنجيليّون في الواقع وكأنهم أيدي الأساقفة والكهنة وعيونهم؛ أو، وفقاً لتعبير إغناطيوس الأنطاكيّ، يُظهر الشمامسة الإنجيليّون، بتناسقهم في ما بينهم، للشعب المؤمن «وصيّة الربّ»[٦٣]. إن مثل هذه النظرة التي حافظت عليها الكنائس الأرثوذكسيّة، والتي هي في طور الاستعادة في الجماعات اللاتينيّة، يجب أن تسلّط عليها الأضواءُ في الكنائس الشرقيّة

[٦٣] إغناطيوس الأنطاكي، **رسالة إلى السمرنيّين** ١٠،٨: سلسلة «**المصادر المسيحيّة**» (Sch) ١٠ آ، ١٣٨.

الكاثوليكيّة. إن إعادة الرسالة الليترجيّة والخارجة عن الليترجيّا إلى الشموسيّة الإنجيليّة يعود في الواقع بالنفع الجليل.

٧٧. حقُّ رسامة الإكليريكيّين المنتمين إلى أبرشيّة

يحدِّد القانون ٧٤٨ من «م.ق.ك.ش.» النظمَ التي ترعى حقَّ سيامة الإكليريكيّين المسجَّلين في أبرشيّة. في البند ٢، يُفرَض أن الأسقف الأبرشيّ لا يستطيع أن يرسم أحد أبناءِ أبرشيّته المنتمي إلى كنيسة أخرى ذات شرع خاصّ، إلاّ بإذنٍ من الكرسي الرسوليّ، أو في بعض الأحوال، إلاّ بإذن البطريرك. إن واجب هذا الإذن يتعلّق فقط بجواز الاحتفال بالسيامة، ويختصّ، لمزيد من الإيضاح، بحالِ جرت السيامة بحسب طقس ليترجيّ يختلف عن الطقس الذي إليه ينتمي المرشَّح، أو بحال استأذن الأسقف الأبرشيُّ المسؤولُ عن المتقدّم إلى السيامة، أن يَحتفل بالسيامة حسب طقس المرشَّح.

وأكثرَ من طقس السيامة نفسه، يحتفظ أسقفُ الأبرشيّة، حيث يكون المرشَّح مسجَّلاً، بكامل الحقّ بأن يبعث برسائل «إطلاق السبيل» إلى أسقفٍ ينتمي إلى كنيسة المرشَّح، ذاتِ الشرع الخاصّ، كي يقوم ذلك الأسقف بالسيامة المقدّسة، مع الحفاظ على فرائض الطقس الخاصّ الليترجيّة.

٧٨. حدود منح الامتيازات الشرَفيّة الشرقيّة

ليأخذ الإكليريكيّون بعين الاعتبار ما يفرضه القانون ٣٨٨ من «م.ق.ك.ش.»، بشأن استعمال الحقوق والشارات المرتبطة بالمناصب التي مُنحوها. ويجب أيضاً تحاشي منح مناصب مستعملة في الكنائس الشرقيّة، لإكليريكيّين لا ينتمون إلى كنيسة المانح ذات الشرع الخاصّ. ويجب أيضاً إلغاءُ المناصب أو الحقوق المتعلّقة بها الممنوحة من الإرث اللاتينيّ السابقِ الإصلاحَ المجمعيّ. ويجب في الواقع التحاشي بألاّ يعدوَ منحُ مثل هذه الامتيازات الشرقيّة كونَه مظاهرَ خارجيّةً صِرف، تسيءُ إلى كرامة الطقوس الشرقيّة المميَّزة.

كما أنه لا يليق أيضاً بأن تُمنح ألقابٌ رهبانيّة مع الثياب والشارات المنوطة بها للإكليرس العلمانيّ. وهذا يصحّ، بالأَولى، للإكليروس المتزوّج.

الفصل العاشر

الزواج

٧٩. الزواج المسيحيّ

في الحديث عن الحياة الزوجيّة، يضيف القديسُ بولس بعد ذكره سفرَ التكوين[٦٤]: «إن هذا السرَّ لعظيم؛ أقول هذا بالنسبة إلى المسيح والكنيسة» (أف ٥: ٣٢). تلك تأكيدات تتردّد بدون انقطاع في جميع الكنائس، وهي تقودنا إلى تفهّم غنى الحياة الزوجيّة المتشعّب الأشكال.

هذا الغنى يذكّر بكلّ عملِ خلقِ الكون الذي يبلغ أوجَه في الإنسان الذي خُلق على صورة خالقه ومثاله؛ ويشير إلى بُعده العلائقيّ: لم يخلق الإنسان ليكون وحدَه. بل إنه لمّا دُعي إلى أن يحرُث الأرض ويسودَها، شعر بالحاجة إلى معينٍ على شبهه يؤلف معه جسداً واحداً.

ويزدادُ السرُّ عمقاً إذا «نُسب إلى المسيح والكنيسة»؛ في سرِّ المسيح تظهر فعلاً في ملئِها علاقةُ الخليقة بسيّدها، الذي هو أعظم منها، وهي التي على صورته قد خُلقت. الخالق الذي شملها بمجده قبل السقطة، والذي يرافقها سرّيّاً مدى أيّامِ

[٦٤] «لذلك يترك الرجلُ أباه وأمّه ويلزم امرأته، فيصيران كلاهما جسداً واحداً» (تك ٢: ٢٤).

حياتها الحاضرة، والذي سينيرها مباشرةً في أورشليم السماويّة (راجع رؤ ٢١: ٢٣).

تعبّر النصوص الليترجيّة عن هذا البُعد العلائقيّ بعباراتٍ متنوّعة طالبةً للعروسَين السلام، والحبَّ الكامل. والتفاهم، ووفرةَ الخيرات؛ ثمَّ الاعتدال، وطهارةَ المخدَع الزوجيّ، وسيرةً لا عيبَ فيها، والحقيقة؛ وأيضاً، الأمانة للعهد، والثباتَ في الاتحاد المقدَّس الآتي من الربّ، وفقاً لمثالٍ يجب لا أن يميِّز الحياةَ الزوجيّة فحسب، بل أن يُلهم تعايشَ الأسرة البشريّة جمعاء، على مثال السيّد الذي جاء ليهدم في ذاته العداوة، ويجمع في الوحدة ما تفرّق، ويصالحنا جميعاً مع الله، «ليطهّره [الكنيسة] ويظهرها مقدَّسةً لا عيبَ فيها» (راجع أف ٥: ٢٥-٢٧).

تصبح علاقة الحبّ بين الرجل والمرأة مخصبةً وتنتهي إلى الاشتراك في عمل الخلق، بإيلاد البنين، تتميماً للوعد لإبراهيم الذي اختاره الله ليكون أباً لشعوبٍ كثيرة، دُعوا جميعُهم كي يقدّموا للإله الحيّ عبادةً بالروح والحقّ.

٨٠. واجب التهيئة

يذكّر القانون ٣٨٣، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» رعاةَ النفوس بواجب الاهتمام بالمؤمنين الذين يتأهبون لحالة الزواج، كي يستعدّوا لها، ويطّلعوا على معنى الزواج

المسيحيّ، وميزات وحدته وعدم انفساخه، على مثال وحدة المسيح والكنيسة الدائمة، وعلى واجبات الزوجين المتبادلة وواجباتهم نحو أولادهم (ق ٧٧٦، البندان ١ و٢).

ويُرجع القانون ٧٨٤ إلى الشرع الخاصّ في الكنائس ذات الشرع الخاصّ، في ما يتعلّق بقواعد استجواب الخطّيبين، وبطرائق التحرّي عن مطلق حالهم وعن معموديّتهم. ويلاحظ أنه، خلافاً للحق القانونيّ اللاتينيّ (ق ١٠٦٥)، تستخدم «م.ق.ك.ش.» فقط تعبيرَ المعموديّة دون الحديث عن مسحة الميرون. فمسحة الميرون المقدَّس، كما رأينا، يجب أن تمنح في التقليد الشرقيّ مع المعموديّة[٦٥].

٨١. الرضى وأحكام الزواج

العنصر الذي لا يمكن الاستغناءُ عنه لإقامة الزواج هو الرضى الذي به يقدّم رجلٌ وامرأةٌ كلُّ واحدٍ منهما ذاتَه للآخر، ويقبل أحدُهما الآخر (ق ٨١٧). ويقدَّر أن رضى النفس الداخليّ يتوافق والأقوالَ والإشاراتِ التي ترافق عقد الزواج (ق ٨٢٤، البند ١).

لا تُعتبر صحيحةً إلاّ الزواجات التي تُعقد برتبةٍ مقدّسة، أي التي يُحتفل بها بحضور وبركة الرئيس الكنسيّ

[٦٥] راجع ق ٦٩٥ من «م.ق.ك.ش.».

المحليّ أو الخوري المحلّي، أو كاهنٍ حصل من أحد هذين الاثنين على صلاحيّة مباركة الزواج (ق ٨٢٨، البندان ١ و٢). يصحُّ ويجوزُ أن يُقام زواجٌ بحضور الشاهدَين [الإشبينين] فقط عندما يتعذّر، بدون مشقّة جسيمة، وجودُ كاهنٍ ذي صلاحيّة على قاعدة الشرع، أو الوصول إليه، أو أيضاً في حال خطر الموت، إذا تُوقّع توقّعاً صوابيًّا أن عدم الإمكانيّة هذا سوف يدوم على الأقلّ شهراً. في مثل هذه الحال، يحسن إذا أمكن ذلك أن يُستدعى كاهنٌ آخر، وإن كان غيرَ كاثوليكيّ، لمباركة الزواج (ق ٨٣٢، البندان ١ و٢).

٨٢. واجب الرتبة المقدّسة

يجب أن نلاحظ أن واجب الرتبة المقدَّسة، أي أن يبارك كاهنٌ الإكليل ليكون الزواجُ صحيحاً، هي من ميزات الشرع الشرقيّ. في الكنيسة اللاتينيّة يُطلب فقط حضور الرئيس المحليّ، أو الخوري، أو كاهنٍ أو حتى شماسٍ إنجيليّ يُنتدب لذلك[٦٦]. في التقليد الشرقيّ، على الكاهن ليس فقط أن يحضر الزواج، بل أن يباركه. والبركة تعني أنه يعمل كخادمٍ حقيقيٍّ للسرّ، بحكم سلطان التقديس الكهنوتيّ [الممنوح له]، كي يوحّد اللهُ العروسَين على مثال الوحدة غيرِ

[٦٦] راجع ق ١١٠٨، البند ١، من «مجموعة الحقّ القانونيّ».

كي يوحّد اللهُ العروسَين على مثال الوحدة غيرِ الزائلة القائمة بين المسيح والكنيسة، ولكي تقدّسهما نعمةُ السرّ.

ويحدّدُ القانون ٨٣٢، البند ٣ من «م.ق.ك.ش.» أيضاً أنه إذا عُقد الزواج، لأسباب استثنائيّة، أمام الشهود فقط، فعلى الزوجين أن يقبلا من الكاهن، في أقرب وقتٍ ممكن، بركة الزواج.

٨٣. الصلاحيّات لبركة الإكليل

بشأن الصلاحيّة لبركة الزواج، تحدّد «م.ق.ك.ش.» و«مجموعة الحقّ القانونيّ» نظاماً شبيهاً في نصّه: يحقّ للرئيس الكنسيّ المحليّ أو الخوري المحلّي «أن يباركا زواجاً مباركةً صحيحة، في أيّ مكانٍ ضمن حدود ولايتهما، سواءٌ أكان الزوجان خاضعَين لهما أم لا، بشرط أن يكون أحد الفريقَين على الأقل منتمياً إلى كنيسة المحتفل ذاتِ الشرع الخاصّ»[٦٧].

أما بشأن التفويض لبركة إكليل، فالقانون ٨٣٠، البند ١ من «م.ق.ك.ش.» يفرض أنه «يحقّ للرئيس الكنسي المحليّ وللخوري المحليّ أن يفوّضا إلى كهنةٍ من أيّ كنيسة ذاتِ شرعٍ خاصٍّ كانوا، حتى من الكنيسة اللاتينية، مباركة زواج معيَّن، وذلك ضمن حدود ولايتهما». وكذلك يحقّ

[٦٧] راجع ق ٨٢٩، البند ١ من «م.ق.ك.ش.»؛ وأيضاً ق ١١٠٩ من «مجموعة الحق القانونيّ».

للرئيس الكنسيّ المحليّ والخوري المحليّ اللاتينيّين أن يفوّضا إلى كهنةٍ شرقيّين إمكانيّة حضور وبركة زواج مؤمنين لاتين[٦٨].

مع ذلك يجب التنبّه إلى أن القانون ٩١٦ من «م.ق.ك.ش.» يرى أنه، باستثناء الحالة حيث الرئيسُ الكنسيُّ أو الخوري هما من كنيسة أخرى ذاتِ شرعٍ خاصّ، يجب أن يُقام حفلُ الزواج، ليكون جائزاً، بحسب طقس العروسين الليترجيّ، أو بحسب طقسٍ واحدٍ منهما، إذا كان الزواج مختلط الطقوس[٦٩]. فالاحتفال بحسب طقسٍ آخر هو إذَن غيرُ جائز، ولكن يمكن أن يَسمحَ به الكرسيُّ الرسوليُّ حالةً بعد حالة.

ويحدّد القانون ٨٣١، البند ٢ من «م.ق.ك.ش.» أن الزواج يجب أن يُعقد أمام خوري العريس، ما لم ينصَّ الشرعُ الخاصُّ على غير ذلك، أو ما لم يكن هنالك سببٌ صوابيٌّ عاذِر.

في حال الزواجات المختلطة بين شرقيّين كاثوليك وأرثوذكس، يلزم فقط من باب الجواز المحافظة على صفة العقد، أي على نظام عقد الزواجات بحضور الرئيس الكنسيّ

[٦٨] راجع ق ١١١١، البند ١ من «م.ق.ك.ش.».

[٦٩] راجع ق ٤٠، البند ٣ من «م.ق.ك.ش.».

المحليّ أو الخوري المحليّ، أو أحد من ينوب عنهما. أما لصحّة تلك الزواجات فتلزم البركة الكهنوتيّة[٧٠].

٨٤. التقيّد بما ترسمه الكتبُ الطقسيّة

«في ما سوى حال الضرورة، يجب التقيّد في الاحتفال بالزواج، بما ترسمه الكتب الطقسيّة والعادات المشروعة» (ق ٨٣٦). لدى إعادة النظر في المراسيم الطقسيّة لهذه الاحتفالات، وعند الاقتضاء لدى ضبطها، على السلطات المختصّة في كلّ كنيسةٍ ذاتِ شرعٍ خاصّ أن تبادر إلى الحفاظ على الثروات المميِّزة للتراث الخاصّ، الذي يُظهر بأجلى بيان معنى مؤسسة الزواج في إطار تاريخ الخلاص كلّه، ذلك التراثِ الذي يعبّر بطريقة فريدة بعبارات لاهوتيّة، عن علاقة الزواج المتينة مع السرّ الزواجيّ القائم بين المسيح والكنيسة.

٨٥. الخُطبة

يتحدَّث القانون ٧٨٢ من «م.ق.ك.ش.» عن الخطبة التي تسبق الزواج، مؤكداً أنها تخضع للشرع الخاص (البند ١). ولكنه يحدّد أنه، انطلاقاً من الوعد بالزواج، لا يُسمح بعدُ بحقِّ المطالبة بعقد الزواج. في الممارسة المعمولِ بها منذ عدّة قرون – والساريةِ المفعول بعدُ في كنائس عديدة – يُحتفل

[٧٠] راجع ق ٨٣٤، البند ٢.

عادةً بالخطبة المسمّاة «رتبة الخواتم» في أثناء عقد الزواج ذاته المدعوّ «رتبة الأكاليل».

رتبة الخطبة في معناها المميِّز هو التعبير عن رضى العروسين، فيما تهدف رتبة الأكاليل مباشرةً إلى الولوج في كمال الحياة الزوجيّة. محتوى رتبة الخطبة لا يتوقّع مجرَّد وعودٍ، بل عهوداً ذات طابع نهائي. فلا يحسُن إذن أن يُحتفل بالخطبة بدون تروٍّ أو في أوائل مشروع الزواج. هناك في العديد من الكنائس رتبٌ طقسيّة مميّزة، للمراحل الأولى من تحقيق تلك المشاريع، أقلُّ أُبَّهة وغيرُ نهائيّة. وتلك الرتب جزءٌ من تقليدِ كنائس أخرى، غيرُ متَّبع الآن. ويمكن لتفهمٍ أفضلَ لهذه الرتب ولإمكانيّة إعادتها أن يُسهما في تقديس مختلف مراحل مسيرة الأزواج المسيحيّين، حتى ملءِ اكتمالها.

الفصل الحادي عشر

التوبة

٨٦. معنى التوبة

كان يوحنا المعمدان يعظ في برّيّة اليهوديّة ويقول: «توبوا فإن ملكوت السماوات قريب» (متى ٣: ٢). واستخدم يسوعُ المسيح العبارةَ نفسَها في بدء حياته العلنيّة (متى ٤: ٢٧). وابتدأ بطرسُ أيضاً خدمتَه الرسوليّة بدعوته الى التوبة أولئك الذين شاهدوا حلولَ الروح القدس، صباحَ العنصرة (أع ٢: ٣٨). وتلك هي بالضبط الرسالة التي أوكلها المسيح إلى رسله عشيّة قيامته. عندما ظهر لهم وعلّمهم «أنه سيُكرَز باسمه، بالتوبة ومغفرة الخطايا، في جميع الأمم» (لو ٢٤: ٢٧). وأرسلهم قائلاً: «خذوا الروحَ القدس: فمن غفرتم خطاياهم غُفرتْ لهم، ومن أمسكتم خطاياهم أُمسكت» (يو ٢٠: ٢٢-٢٣).

إن توبة القلب التي بها يلبّي الإنسان نداءَ الربّ ويبدّل مجرى حياته، بتوجّهه إلى الربّ، تفترض عدّة أبعاد، من مثل الندامة والتوبة والتكفير؛ وهي تلزم الفكر والتصرّف، وتحتلّ

قلبَ كلّ حياةٍ مسيحيّة. «فالجميع قد خطئوا فأعوزهم مجد الله» (روم ٣: ٢٣)، ولكن باشتراكهم في موت المسيح وقيامته، يمكنهم الحصول على مغفرة خطاياهم، أي الموتِ عن أنفسهم والحياةِ لله (روم ٦: ١١).

٨٧. توجيه التوبة يملأ العبادة المسيحيّة كلّها

توجيه التوبة الذي يرافق الحياةَ المسيحيّة كلّها يَظهر بوضوح في كلّ مظهرٍ من مظاهر العبادة التي تتطلّب، في الواقع، الحقيقة (مز ٥: ٦)، وهو يفترض لذلك معرفةً دائمةً لوضع الخطيئة وضرورةَ تبديل الطريق. ويتجلّى هذا الموقف على مدى السنة الليترجيّة كلّها، وفي كل ساعةٍ من النهار؛ ولكنه يظهر بإلحاح أشدّ، في أثناء أوقات الاستعداد للأعياد، وبالأخصّ في الزمن الذي يسبق الفصح. ولذلك، طقوسُ الشرق والغرب جميعُها، ومنذ زمنٍ عريقٍ في القدَم، توعز بأن يُتلى عدَّة مرّات في النهار، المزمورُ الخمسون الذي به نطلب الغفران ونستدعي موهبةَ الروح القدس. ويظهر وضعُ التوبة بأجلى بيانٍ في عدّة أسرار: نُمنح المعموديّة، في الواقع، «للتنقية السعيدة» من الخطايا[٧١]؛ وفي الليترجيّا الإلهيّة نقدّم

[٧١] صلاة ما بعد لبس الثوب في طقس المعموديّة البيزنطيّ.

«عبادةً روحيّةً [تكفيراً] عن خطايا الشعب وجهالاته»[٧٢]، متقدّمين من المناولة المقدّسة التي بها نتقبّل جسدَ الربّ ودمه «الذي يكسر ويُهْراق لمغفرة الخطايا»[٧٣]؛ ومسحةُ المرضى تمنحُ أيضاً مغفرة الخطايا (يع ٥: ١٥).

وعلاوةً على ذلك، تتوفّر أوقاتُ صلاة ليترجيّة، في العديد من الكنائس الشرقيّة، أُسندت إليها قيمةُ توبةٍ خاصّة، ونوعاً ما، قدرةُ مصالحة. وفي التقليد الشرقيّ القديم أيضاً، نجد أن التوبة لا تؤتي ثمارَها في الإطار الليترجيّ فحسب، لأن هناك أعمالاً (صيامات، صدَقات، حجّ، إلخ) تسبق وتحصل منه تعالى على بعض نعمة الغفران، وأنّ هناك أمكنة (أديراً، قلاّيات، صحراء، إلخ) حيث نعمةُ الحزن الفائقة الوصف على الخطايا الخاصّة، تُظهر، في الدموع، إمكانيّةَ الولادة من جديد، كلَّ يوم، إلى جِدّة حياة الروح.

٨٨. سرّ التوبة وطريقة إقامته العاديّة

على الدوام، تبادر الكنيسة بعطف الأمّ إلى ملاقاة الضعف البشريّ، بمنحها توبةً جديدةً بعد المعموديّة. ففي إطار حياةٍ تتميَّز بتوجّهها نحو تحقيقٍ كاملٍ لقدرات المعموديّة

[٧٢] صلاة وضع القرابين في الليترجيّا الإلهيّة البيزنطيّة لأبوينا في القدّيسين باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبيّ الفم.

[٧٣] الليترجيّا الإلهيّة البيزنطيّة لأبوينا في القديسين باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبيّ الفم.

والانتماء إلى المسيح، يحتلُّ سرُّ التوبة مكاناً مرموقاً ويُهيّئُ بطريقة خاصّة لتقبّل الإفخارستيّا الإلهيّة.

يؤكّد القانون ٧١٨ من «م.ق.ك.ش.» أن «المؤمنين الذين اقترفوا خطايا بعد المعموديّة ويعتزمون [دخول أجواءِ] حياةٍ جديدة، ينالون من الله الغفران، ويتصالحون في الوقت نفسه مع الكنيسة» بواسطة سرّ التوبة «عن طريق خدمة كاهن يعترفون له ويتقبّلون منه التكفير الملائم». هذا الاعتراف الفرديُّ الكامل، مع الحلّ، يشكّل الطريقةَ الوحيدة التي يستطيع بها المؤمنُ الذي يعي أنَّ على ضميره خطيئةً ثقيلة، أن ينال عنها الغفران[٧٤]. حتى إذا لم يقترف المؤمنون خطايا ثقيلة، فإن [الكنيسة] توصيهم أن يتقدَّموا من هذا السرّ بتواتر، ولاسيّما في زمن الصوم والتوبة[٧٥].

٨٩. القيمة الجماعيّة للتوبة

يدخل الاعتراف الفرديّ، بطبيعته وجوهره، في إطارٍ كنسيّ، ومن ثمَّ جماعيّ. وذلك، قبل كلّ شيء، لأن المصالحة مع الله هي أيضاً مصالحةٌ مع الكنيسة. وعلاوةً على ذلك، في جميع الكنائس الشرقيّة، يُمنح السرُّ تقليديّاً في إطارٍ من

[٧٤] راجع ق ٧٢٠، البند ١ من «م.ق.ك.ش.».

[٧٥] راجع ق ٧١٩ من «م.ق.ك.ش.».

الصلوات والإعلانات والتوبيخات والحلّ من الخطايا يمكن أن يُحتفل بها في جماعة المؤمنين، بما يستحقُّ الثناء.

وهناك طريقةٌ مماثلة يُوحى بها، على الأقلّ بطريقة غير مباشرة، عندما تؤكد «م.ق.ك.ش.» أن المكان الخاصّ للاحتفال بسرّ التوبة هو الكنيسة[٧٦]، وأن ذلك يتناسب والعُرفَ التقليديَّ لإقامته، ليس في كرسيٍّ للاعتراف من مثل ما تستخدمه الكنيسة اللاتينيّة، بل في المقام المقدّس نفسه، وبحسب بعض التقاليد، أمام إيقونةٍ للمسيح. فمن واجب السلطات في كلّ كنيسة ذات شرع خاصّ أن تتفحَّص بدقّةٍ كتبَها الطقسيّة، تلك التي من قديمٍ أيضاً، كي تجد فيها الصيَغ التي تعبّر أحسنَ تعبيرٍ عن غنى تقاليدها الخاصّة في هذا الميدان المعيَّن.

٩٠. معنى الاعتراف الفرديّ وقيمته

تفرض «م.ق.ك.ش.» أن الحلَّ من الخطايا لا يمكن أن يُمنح لعدّة تائبين ما لم يسبقه اعترافٌ فرديٌّ، ما عدا في الظروف الاستثنائيّة التي يعدّدها القانون ٧٢٠، البند ٢، ووفقاً لشروطٍ يحدّدُها القانون ٧٢١، البند ١.

[٧٦] راجع ق ٧٣٦، البند ١ من «م.ق.ك.ش.».

يُظهر هذا النظامُ بجلاءٍ قيمةَ الاعتراف الفرديّ في مجمل سرّ التوبة. إن وعيَ الضمير للخطايا الخاصّة والاعتراف بها هما الشرطان لعبادة تُرفع إلى الله بحقٍّ. فللّه وحدَه سلطانُ غفران الخطايا. لذلك وكما تذكّر به عدّةُ كتبٍ طقسيّةٍ شرقيّة لمنح الأسرار، يوجَّه الاعتراف بالخطايا، قبل كل شيءٍ، إلى الله. من جهة أخرى، أوكل المسيحُ، بعد قيامته، إلى الرسل مهمّةَ قيادة قطيعه إلى ملكوت السماوات عندما أعطاهم الروحَ القدسَ قائلاً: «من غفرتم خطاياهم غُفرَت لهم» (يو ٢٠: ٢٣). هكذا يُعطى المعرِّفُ سلطةَ معرفةِ ما يجبُ أن يُربَط أو يُحَلّ (متى ١٦: ١٩)، وهذا تحت حماية سرِّ [منح] السرّ.

إذن يجب الحفاظُ على الصيغة الفرديّة في سرّ التوبة وتشجيعُها، على ما جاء في تقليد الكنائس الشرقيّة. وإذا تبيّن أن تلك الصيغة لربما لا تطبّق بما فيه الكفاية، فيجب إعادتُها.

الفصل الثاني عشر

مسحةُ المرضى

٩١. شفاءُ المرضى علامةٌ لمجيء الملكوت

عندما سأل تلاميذُ يوحنا يسوعَ هل هو المسيحُ المنتظر، أجاب قائلاً: «انطلقوا وأعلموا يوحنا بما تسمعون وترون: العُميُ يُبصرون، والعُرجُ يمشون، والبُرصُ يطهرون» (متى ١١: ٤-٥). كلُّ الأناجيل تورد أمثلةً كثيرة عن عطف الربّ العمليّ نحو المرضى. ولقد أورد متى الإنجيليّ فكرةً تساعد على فهم المعنى: شفاءُ المرضى إنما يُعلن تحقيق نبؤة أشعيا[٧٧]. بشفاءِ المرضى وإقامة الأموات يظهرُ المخلّصُ وكأنه، بروح الله (متى ١٢: ٢٨)، ينتزع من الشيطان سلطانه المؤذي على الإنسان ويعيد الملكوت إلى الآب (١ كو ١٥: ٢٤، ٢٨).

شفاءُ المرضى، الذي هو اعتلانٌ وعلامةٌ للخلاص الحاضر في شخص يسوع، هو أيضاً إحدى مهمّات الكنيسة

[٧٧] «إنه لقد أخذ عاهاتنا وحمَل أوجاعنا...» (أش ٥٣: ٤).

التي تكمّل بالروح القدس عمل الكلمة المتأنّس. هذا في الواقع ما يعلنه المسيح عندما يبعث تلاميذه إلى الرسالة قائلاً: «اشفوا المرضى،...، طهّروا البرص» (متى ١٠: ٨)؛ أو أيضاً، قبل صعوده، عندما يصف الآيات التي ستصحبُ المؤمنين «باسمي... يضعون أيديَهم على المرضى فيبرَأون» (مر ١٦ ١٧-١٨).

ويُضاف إلى هذا المعنى عينه النصُّ المألوف من رسالة القديس يعقوب القائل: «هل فيكم مريض؟ فليَدعُ كهنة الكنيسة وليُصلُّوا عليه، ويمسحوه بالزيت باسم الربّ» (يع ٥: ١٤). ويمثّل هذا النصُّ قاعدةَ الإعداد الأسراريّ لرتبة مسحة المرضى.

٩٢. معنى السرّ

ترافق مسحةَ المرضى صلاةٌ لشفائهم. معنى تلك الصلاة مرتبط جوهريًّا بصفتها علامةً تعبّر عن شفاء الشخص الكامل وعن رأفة الآب السماويّ التي يُنعم بها على الإنسان المبتلى، في جسده وفي نفسه، بالمرض والخطيئة. هكذا عندما يشفي يسوعُ المخلّع يشرح للكتبة معنى المعجزة: «فلكي تعلموا إذن أن ابنَ البشر له سلطانٌ على الأرض أن يغفر الخطايا...» (متى ٩: ٦).

يعني زيتُ المرضى إذن الدواءَ الروحيَّ الذي تُنعم به الرحمةُ الإلهيّة على الإنسان الذي تُلمُّ به ويلاتُ الحياة الكثيرة. إنه سرٌّ من أسرار الكنيسة، يستمدُّ قيمتَه من الصلاة المشفوعة بالإيمان التي ترفعها الكنيسة ويرفعها الكهنة الذين يمثّلونها. الإيمانُ الذي يجب أن يرافق المسحةَ يعبّر عن ثقة المؤمنين بالربّ الذي لا يغفل عن شيء كي يوصلنا إلى ملكوته، والذي يستجيب تضرّعاتنا مانحاً إيّانا كلَّ ما يعودُ بالخير علينا، حتى إذا ما اتحدنا في موته، نصير شركاءَ له أيضاً في قيامته.

٩٣. أساليب الاحتفال بالسرّ

توصي «م.ق.ك.ش.» بأن تمنح المسحةُ للمرضى كلّما تعرّض هؤلاء لمرضٍ خطير (ق ٧٣٨)، ويشير إلى أن هذه الخدمة منوطة بالكهنة وحدَهم (ق ٧٣٩، البند ١). ثمّ يذكّر بعادة بعض الكنائس الشرقيّة بأن يجتمع عدّة كهنة للاحتفال به، ويوصي بالمحافظة على تلك العادة قدر الإمكان (ق ٧٣٧، البند ٢).

في الواقع تعبِّر مشاركةُ عدّة كهنة في الاحتفال أحسن تعبير عن حَدْب الجماعة الكنسيّة كلّها على المريض كي تواجه معه أخطار النفس والجسد وتتغلّب عليها. أما الطقوس الواجبُ المحافظة عليها، فـ«م.ق.ك.ش.» تفرض أن يُبارك

الزيتُ الذي يُستخدَم لمسحة المرضى في أثناء الاحتفال بالسرّ. وبالضبط أن يباركَه الكاهنُ المحتفل، ما لم ينصَّ على غير ذلك الشرعُ الخاصُّ في الكنيسة ذات الشرع الخاصّ (ق ٧٤١). علاوةً على ذلك، يطلب القانون «التقيّدَ الدقيق، في إجراء المسحة، بالكلمات وفي الترتيب وفقاً للطريقة المقرَّرة في الكتب الطقسيّة»، وإن كان، «في حال الضرورة، تكفي مسحةٌ واحدة مع صيغتها الكلاميّة» (ق ٧٤٢).

٩٤. ميزة المسحة الخاصّة في الطقوس الشرقيّة

في الكنائس الشرقيّة، يظهرُ الاحتفالُ بسرّ مسحة المرضى نوعاً ما متشعّباً ويستغرقُ بعضَ الوقت. في الواقع، هذه المدّة الطويلة المغايرة لقِصَر الطقوس الغربيّة تنوّه بالمظهر التعليميّ السرّيّ للصلاة. ففيها يدخلُ التأملُ في عجائب الربّ التي تعلنها نصوصٌ إنجيليّةٌ مختلفة، تُستَمدُّ منها القوّةُ والتعزية. علاوةً على ذلك، يتضرَّعُ [الكاهن] إلى الربّ أن يمنح المريضَ خلاصَ الجسد والنفس، سواءٌ أكان في الوقت الحاضر أم في آخر الأزمنة، عندما يمنح الربُّ المؤمنين به المشاركة في كمال الحياة الإلهيّة.

وإذا ما اقتضت الأحوال، يمكن سلطانُ كلّ كنيسة أن تحدّد مقاطع النصّ الواجب استخدامها إذا احتُفل بالسرّ في منزل المريض، وهو في حالةٍ خطيرةٍ جداً، أو في

المستشفيات. إلاّ أنه يحسُن أن تُستخدَم بانتظامٍ الصيغةُ الأكمل عندما يُمنح السرّ، على ما يحدثُ أحياناً وكما يُنصح بذلك، في الكنيسة ولعدّة مرضى معاً، إذا أمكن. في هذه الحال، يكسب السرُّ قيمةً تعليميّة مرموقة.

الفصل الثالث عشر

الصلوات الطقسيّة

٩٥. الصلاة المسيحيّة

يقدّم الرسول بولس، في رسالته إلى الأفسسيّين لوحةً معبّرة عن العناصر التي يجب أن تميّز طريقة حياة المؤمنين، وبالأخصّ علاقة الصلاة مع الله: «... بل امتلئوا من الروح، وتحاوروا في ما بينكم بمزاميرَ وتسابيحَ وأناشيدَ روحيّة؛ رنّموا وأشيدوا للربّ بكلّ قلوبكم؛ وفي كلّ وقتٍ وعلى كلّ حال أشكروا الله الآب، باسم ربّنا يسوعَ المسيح» (أف ٥: ١٨-٢٠). الصلاة المسيحيّة تجد مصدَرها الدائم في الروح القدس الذي يُفيض أنهار ماءٍ حيٍّ تنبع من المسيح الممجَّد (راجع يو ٧: ٣٨-٣٩). وحدَه الروحُ القدسُ يعرفُ أسرارَ الله (راجع ١ كو ٢: ١١)، وحدَه يعرفُ ما علينا أن نسأل وكيف نصلّي، وهو الذي يمنحنا العون في الصلاة (راجع روم ٨: ٢٦-٢٧).

يتجاوبُ المؤمن وهذه الموهبةَ، ويستعدُّ للإصغاء إلى كلام الله، ويقدّم استعداد قلبه ليؤمن أن المسيحَ هو ابنُ الله، [الابن] الذي أرسله الآبُ ليتمَّ خلاصنا (راجع يو ٦: ٢٩).

والرسول بولس يأمرنا في الواقع بأن نسبّح الله في قلبنا مشيراً بهذه العبارة ليس فقط إلى مركز الشعور، بل إلى أعمق ما هنالك من قرارة كلّ كائنٍ بشريّ، كما ظهر ذلك في تأنيب يسوعَ للذين يرافقونه: «هذا الشعبُ يكرمني بشفتيه، وأما قلوبهم فبعيدةٌ عني جدّاً» (متى ١٥: ٨).

وسبق للعهد القديم أن دعا إلى الصلاة سبعَ مرّات في اليوم (راجع مز ١١٨ [١١٩]: ١٦٤)، بحيث تغطي الصلاة اليوم كلّه. وتلك الوصيّة تُردَّد بإلحاحٍ في العهد الجديد حيث يذكّر الربُّ بضرورة «أن يصلّوا في كلّ حين ولا يقنطوا» (لو ١٨: ١).

٩٦. معنى الصلوات الطقسيّة

«لا تهملوا أنفسَكم، لا تجرّدوا الربّ من أعضائه الخاصّة، لا تجزّئوا جسدَه، لا تبدّدوا أعضاءَه، لا تفضّلوا المهامَّ الدنيويّة على كلام الله، ولكن كلَّ يوم تجمّعوا صباحاً ومساءً، مُنشِدين ومُصلّين في بيوت الربّ»[٧٨]. إن الصلوات الطقسيّة تنعش على الدوام روحَ اليقظة مع الرغبة في عودة الربّ، وتقدّس اليوم؛ وهي بتذكيرها الفكرَ بحضور الربّ، تُفيض نعمتَه بإشباعها الوجود كلَّه ضامّةً إياه إلى الحياة

[٧٨] **القوانين الرسوليّة** ٢، ٥٩، ٢: «المصادر المسيحيّة» (Sch) ٣٢٠، ٣٢٤ (ترجمة م. مبترعيز).

التالوتيّة. إنها تقدّس المؤمن ضمن حدود الزمن الذي يعيش فيه، على مدى الساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنين، وكأنها صلاةٌ لا تنقطع على حدِّ ما أوصى به الرسول.

إن عبارة «الصلوات الطقسيّة» نفسها - التي ترتبط بتعابير غالباً ما تُستعمل في الكتاب المقدّس وفي النصوص الليترجيّة، من مثل «ذبيحة التسبيح»، و«الذبيحة الروحيّة»، و«الذبيحة العقليّة» - والتي تُطلق في بعض الكنائس على العبادة الممتدّة على مختلف ساعات اليوم، تدلُّ على البُعد الدينيّ الذي يبدّل حياة الإنسان ويُشركه شركةً خاصّة مع الثالوث. لقد اعترف على الدوام إجماعُ التقليد المسيحيّ شرقاً وغرباً، بمختلف سُبُل الصلوات التي تبنّتها الحياة الرهبانيّة، مكاناً مفضّلاً يتحقّق فيه ذلك البُعد.

الصلوات الطقسيّة هي مدرسةُ الصلاة التي تخصُّ كلَّ كنيسة، فيها تعلّم الطريقة القديمة لتمجيد الله في المسيح، كما في جسدٍ واحدٍ متّحدٍ ومتمثّلٍ برأسه.

٩٧. العناصر التي تتألّف منها الصلوات الطقسيّة وأهميّتها لمعرفة الروحانيّة الشرقيّة

في أيامنا تتغذّى إقامة الصلاة من الكتاب المقدّس، الكلامِ الذي أعطانا إيّاه الله «للتعليم والحجاج والتقويم

والتهذيب في البرّ، لكي يكون رجلُ الله كاملاً، متأهّباً لكلّ عمل صالح» (٢ تيم ٣: ١٦-١٧). مائدة الكلمة مُعدَّةٌ بواسطة القراءات [الكتابيّة] التي تجمع النصوصَ البيبليّة الواجبَ إعلانها، وترتّبها وتنظّمها على مدار السنة الليترجيّة. وتُعدّها أيضاً مجموعةُ الأناشيد الليترجيّة الغنيّة جدّاً التي تفتخر بها، وبحقّ، جميعُ كنائس الشرق المسيحيّ. وهي ليست إلاّ «امتداداً للكلمة المقروءة المفهومة وأخيراً المرنّمة (...) وهي تفاسيرُ ساميةٌ للنصّ الكتابيّ نقّتها وشخصنتها خبرة الأفراد والجماعة»[٧٩].

وهكذا تؤلّف مجموعاتُ الأناشيد والصلوات الغنيّةُ والمتطوّرةُ بشكلٍ مدهشٍ، لربّما الجزءَ الأكثرَ ابتكاراً في الاحتفالات الليترجيّة الشرقيّة. ففيها تلاقت وتبادلتِ الاغتناءَ عدّةُ تأثيرات، سريانيّة ويونانيّةٍ في غالبيّتها، كي تقود إلى مشاهدة السرّ المسيحيّ، وفقاً للرؤية الشاملة التي تراءت لآباء الكنيسة. وإذ ألّف النصوصَ العديدُ من الكتّاب، وبالأخصّ رهبانٌ نذروا أنفسهم، على مدى قرون، لصلاة لا تنقطع، فالصلوات الطقسيّة تنقل إلينا تراثاً غنيّاً جدّاً وميراثَ حياةٍ روحيّةٍ لا يمكن الاستغناءُ عنه. إنها تتناسبُ والعبقريّةَ الخاصّةَ بمختلفِ الكنائس الشرقيّة، وهي حتى الآن متأصّلةٌ فيها كلّ

[٧٩] يوحنا بولس الثاني، الرسالة الرسولية «**نور الشرق**» (٢ أيار ١٩٩٥)، ١٠: أعمال الكرسي الرسوليّ (AAS) ٨٧ (١٩٩٥)، ٧٥٥-٧٥٦.

التأصّل. وهي، على مثال الكتاب المقدّس، تقتضي أن تمحّص وتُدرَس بتأنٍّ كي تكشف اللآلئ الثمينة التي تحتوي عليها. الصلوات الطقسية هي إذن المكانُ المفضّل لدراسة الروحانيّة المسيحيّة التي تعود في مصدرها إلى صلاة الكنيسة.

٩٨. ضرورة إقامة الصلوات الطقسيّة، جماعيّاً، وفقاً للكتب الطقسيّة

غالباً ما عرّضت الكنائسُ الشرقيّةُ الكاثوليكيةُ ذواتِها لإهمال إقامة الصلوات الطقسيّة جماعيّاً وباحتفال، مستعيضة عنها بتلاوة الإكليريس الفرضَ الإلهيَّ تلاوةً فرديّةً، فيما ، قد يكون، في غالب الأحيان، الاحتفالُ اليوميُّ بالإفخارستيّا، المظهر الوحيد لليترجيّا جماعيّة. وحيثُ مثلُ تلك الممارسة أفضت إلى نقصان – هذا إذا لم نقل إلى انقراضٍ كاملٍ – لعادة إقامة الصلوات الطقسيّة مع الشعب، يجب الرجوعُ بلا إبطاء إلى التقليد القديم، كي لا يُحرَمَ المؤمنون من مصدرٍ للصلاة مميَّز تغذّيه كنوزٌ من العقيدة الأصيلة.

يُستحسن أن بعثَ الحياة الرهبانيّة في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، الذي يُشعر به من كلّ جانبٍ وكأنّه ضرورةٌ ملحّة يُلزم الأديارَ بأن تصبح المكانَ الذي فيه تتردّد أصداءُ الصلوات الطقسيّة، بطريقةٍ مميَّزة واحتفاليّة. وبما أنه حوفظ عليها في الشرق باهتمامٍ خاصّ، لا من قبل الجماعات الرهبانيّة

فحسب بل أيضاً من قبل الرعايا، تذكّر «م.ق.ك.ش.» بالواجب – الذي غالباً ما أهمل بسهولةٍ أو أُغفل – أن تقام الصلوات الطقسيّة في الكاتدرائيّات والرعايا والكليّات والجماعات الرهبانيّة والإكليريكيّات[٨٠]. يجب التقيّد بما ترسمه الكتب الليترجيّة (ق ٣٠٩)، لكن التقيّدَ الخارجيَّ وحدَه لا يكفي: فعلى المسؤولين أن يبذلوا كلَّ الوسائل كي يفهم المؤمنون معنى تلك الصلاة ويحبّوها ويشاركوا فيها فيجدوا لأنفسهم غذاءً روحيّاً[٨١]. وليُعمل على تثقيفهم بتربيةٍ أسراريّة حقّة تسمح لهم بأن ينهلوا غذاءَ حياتهم الروحيّة الخاصّة من معين الاحتفال بأزمنة السنة الليترجيّة المختلفة.

٩٩. تلاوة الصلوات الطقسيّة فرديّاً

يفرض القانون ٣٧٧ من «م.ق.ك.ش.» أنه «يجب على جميع الإكليريكيّين أن يقيموا الصلوات الطقسيّة بحسب الشرع الخاصّ لكنيستهم ذات الشرع الخاصّ». هذا إذن واجبُ فرضٍ على الإكليرس. أما الطريقة المثلى للاحتفال التي تُظهر جليّاً قيمة صلاة الكنيسة، ومن أجل الكنيسة، هي بالحقيقة الطريقة الجماعيّة التي يجب أن تشجَّع وأن تطبَّق بالأفضليّة. لكن عندما تحول دون إقامة الصلاة الجماعيّة

[٨٠] راجع القوانين ١٩٩، البند ٢؛ ٣٢٧؛ ٤٧٣ من «م.ق.ك.ش.».

[٨١] راجع القوانين ٢٨٩، البند ٢؛ ٣٤٦، البند ٢؛ ٣ من «م.ق.ك.ش.».

أسبابٌ عمليّة، فعلى الإكليريكيّين أن يصلّوا، على الأقلّ فرديّاً، مستخدمين النصوص المقدّسة للصلوات الطقسيّة، متضرّعين على الدوام، باسم الجميع، من أجل الشعب الموكولة رعايتُه إليهم، ومن أجل حاجات الكنيسة والعالم أجمع، كما يليقُ براعٍ صالحٍ.

على السلطات في الكنائس ذات الشرع الخاصّ أن تحدّد قواعدَ معقولةً لتنظيم هذه الصلاة الفرديّة وتحديدها، مفضّلين، بعد دراسةٍ متنبّهةٍ لاختيار النصوص، الأجزاءَ الأهمَّ تقليديّاً بالنسبة إلى الهيكليّة الخاصّة بليترجيّا كلّ كنيسة، وآخذين بعين الاعتبار إمكانات الإكليروس الحقيقية. وإلى جانب نصوص الصلوات الطقسيّة الأكمل والتقليديّة، يمكن أن تصلُح النصوصُ المُهيَّأة لتغذّي صلاة المؤمنين العلمانيّين الفرديّة، أكانت صلاة لصالح الأسرة أم صلاة الجماعات.

الفصل الرابع عشر

الأمكنة والحركات والأدوات الطقسيّة

١٠٠. الصلاة الليترجيّة تتعهّد الإنسان بأكمله

ينير الله الشخصَ البشريَّ بأكمله، وبالتبنّي الذي يجعله ابناً لله، يبلغ كمال العلاقة معه تعالى (راجع يو ١: ١٣). يطلب إلينا الله تعالى أن نحبّه من كلّ قلبنا وكلّ نفسنا وبكلّ قوانا. ولا يستثنى من الإنسان أيُّ جزءٍ. بل على العكس من ذلك، كلُّ جزءٍ يتضامن والأجزاءَ الأخرى: النفسُ والروحُ والقلبُ والعقلُ، كلُّها تتضافر لتشكّل البناءَ الروحيَّ المشيَّد لأجل الربّ. وإذ يصبح الشخصُ كاهنَ الخليقة، فهو يُشرك معه كلَّ شيء، مانحاً صوتاً للحقائقِ غير الحيّة، بالتسبيح الموجَّه إلى الخالق. وبطريقةٍ مميَّزة، بتجسّد ابن الله، يضطلعُ الكلمةُ بالبشريّة، والألوهة تقدّس وتكرّس الكون. في هذا يكمن المعنى المسيحيُّ للأمكنة والحركات والأدوات التي تتعاون في ما بينها ومع المؤمن، من أجل العبادة الإلهيّة.

١٠١. الذبائح والقرابين

نجد في الكتاب المقدّس تقدمة ذبائح وقرابين منذ بدء الكيان البشريّ، مع ذبائح قايين وهابيل. فمن خلالها ينفتح الإنسان على ملاقاة الله؛ لكن، كي تكون الذبيحة مرضيّة، يجب على الإنسان التحلّي بقلبٍ طاهر، وفقاً للقاعدة التي تشمل كلَّ التدبير الخلاصيّ. ويأخذ ذلك الشرط ملئه الكامل في العهد الجديد، عندما يقدّم المسيح «في الحقّ» عبادةً وذبيحةً يرضيان الله، وعندما، باسمه، يكرّر الرسلُ والكنيسةُ عَمله. الجلجلة هي الينبوعُ الوحيد وقمّةُ الذبيحة التي تظهر للعيان في التقدمة الإفخارستيّة فتغذّي المؤمنين على الدوام.

ويعبَّر أيضاً عن هذا الوضع، تحت أشكالٍ مختلفة، بأصدق التعابير وإن كانت بسيطة. تحتلّ تقدمة البخور مكانةً مرموقة، بالأخصّ في الكنائس الشرقيّة؛ فهي تعود بأصولها إلى طقوس العهد القديم، مع استنادٍ خاصٍّ إلى المزمور ١٤٠ (١٤١)، ٢: «لترتفع صلاتي كالبخور أمامك، وليكن رفعُ يديَّ ذبيحةً مسائيّة». مثل هذه العادات الطقسيّة يُحافَظ عليها في الليترجيّا المسيحيّة: إذ إنه كما تحافظ الكنيسة على العهد القديم فتقرأه على ضوء إنجيل المسيح، كذلك، بالروح عينه، تعود إلى حركاتٍ وطقوسٍ من العهد القديم التي تجد ملءَ معناها في الربّ يسوع.

سبق الرسولُ بولسُ وأشار إلى قيمة البخور الرمزيّة عندما شرح للأفسسيّين أن المسيح «قدّم نفسه لله ذبيحةً، رائحةً طيّبة» (٥: ٢)، وللفيليبّيين أن تقادمهم هي «عطرٌ طيّبُ العرف وذبيحةٌ مقبولةٌ لدى الله، مَرْضيّة» (٤: ١٨)؛ كان يُظهر لهم أن تقدمة البخور تعني ذبائح الإيمان وقرابينه، (راجع في ٢: ١٧). يلاحظ هكذا أن العبادة الحقيقيّة، في نظر المسيحيّ، هي عيشة الحياة بحسب الله.

فعلى الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة أن تحافظ بحرص شديد على البخور في الاحتفالات، حتى اليوميّة منها، وتستخدمه أكثر ما يمكن، لأن ذلك، بنوعٍ خاصٍّ، هو من مقوّمات تقليدهم. وليُعمل على تبديل كلّ عادةٍ مضادّةً.

١٠٢. الهيكل

علّم يسوعُ المرأة السامريّةَ أنه لا في أورشليم ولا في جبل جيرازيم سوف تقدّم عبادةٌ لله، بل أنه يجب أن يُعبد بالروح والحقّ (راجع يو ٤: ٢١-٢٤). فقد الهيكل قيمته كمركز للعبادة، لأن حجابه، عند موت المسيح، قد انشقّ من فوقُ إلى أسفل (راجع متى ٢٧: ٥١). والهيكل، بصفته صورةً وإعلاناً للأيّام المستقبلة، يبلغ ملءَ معناه في العهد الجديد (راجع متى ٥: ١٧). فالكنيسة هي الهيكلُ الجديدُ المبنيُّ بحجارة حيّة: إن المسيح، في الواقع، قد هدم الحائطَ الحاجزَ

الذي كان يقسم البشر، وابتنى منهم مسكناً لله بالروح (راجع أف ٢: ١٤-٢٢). في أورشليم السماويّة، لن يكون هناك هيكلٌ، بل سيكون فيها «عرش الله والحمَل» (راجع رؤ ٢٢: ٣)؛ فالربُّ الإله الكليُّ القدرة والحمَل سيكونان هما الهيكل (راجع رؤ ٢١: ٢٢).

البناءُ المقدَّس، في زمن الكنيسة هذا، هو علامةٌ ترشدنا إلى الطريق الذي يقود إلى من هو سيّدُ المخلوقات السماويّة والأرضيّة، ربُّ السيرافيم، ملكُ إسرائيل، القدّوسُ وحدَه الذي جاء وسكن في ما بيننا كي يقودنا إلى الملكوت، «موطِننا في السماوات» (في ٣: ٢٠). الكنيسةُ الماديّةُ هي علامةُ المذبح السماويّ والمقدسِ حيثُ دخل المسيح، لا إلى مقدسٍ من صُنع يدِ بشرٍ، صورةٍ للهيكل الحقيقيّ، «بل إلى السماءِ بعينها ليظهر الآن، أمام وجه الله، لأجلنا» (عبر ٩: ٢٤). فالمقدس يقودنا إذن داخل عالمٍ مختلف، إلى حضرة الله.

تلك العلاقة بين العالمين، الأرضيّ والسماويّ، غالباً ما تؤكّدها الليترجيّات المسيحيّة كلُّها. مثالاً على ذلك، هناك عبارةٌ إفخارستيّةٌ واسعةُ الانتشار تطلب «إلى الله الرحيم أن يتقبّل تقادمنا، رائحة طيبٍ روحيٍّ، على مذبحه المقدّس السماويّ العقليّ»[٨٢]. إن في ذلك لبعداً مقدّساً يختلف عن

[٨٢] راجع مثلاً الطلبة التي تسبق «الأبانا» في الليترجيّات الإلهيّة للكنائس ذات التقليد القسطنطينيّ.

الواقع البشريّ البسيط؛ يُدخلنا إليه السرُّ الليترجيُّ الذي به تستعيد البشريّة وشاحَ المجد الإلهيّ الذي كانت تتّشحُ به قبل سقطة الخطيئة. العلاقة الأساسيّة القائمة في الكنائس الشرقيّة بين صحنِ الكنيسة والمقدِس ترمز إلى واقعنا الحاضر الذي فيه نرى كما في مرآة، في إبهامٍ (راجع ١ كو ١٣: ١٢)، بما أن الكنيسة جمعاء لا تزال في الطريق نحو رؤية ربّها المُمجَّدة. بهذه الطريقة تتبدّل الحياةُ الحاضرةُ وتتوافقُ وصورةَ الربّ «من مجدٍ إلى مجدٍ» (٢ كو ٣: ١٨)، بعيداً عن المهامّ الدنيويّة، نحو الحياة المستقبلة حيثُ نرى الله «وجهاً إلى وجه» (١ كو ١٣: ١٢).

١٠٣. المذبح

المذبح هو تعبيرٌ آخر للعبادة، يرتبط بتقدمة الذبيحة المقدَّمة لله. «بنى نوح مذبحاً (...) وقدّم ذبائح» (تك ٨: ٢٠): إن ذلك بادرةٌ رمزيّةٌ نجدها في الديانات كلّها، تعبّر عن الشكران لمواهب نلناها، وتعني أيضاً الخضوع والابتهال والتكفير. ولما كان المذبح يشكّل عنصراً هامّاً للعبادة في إسرائيل القديم، فلقد احتلّ مركزاً وحيداً، أولاً في خباء المحضر، أيامَ موسى، ثم في هيكل سليمان.

والسيّدُ المسيح أتى على ذكر المذبح أيضاً عندما أنّ رؤساءَ الشعب قائلاً: «ما الأعظم: القربانُ أم المذبحُ الذي يقدّس القربان؟ فمن حلف بالمذبح فقد حلف به وبكلّ ما

عليه. ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه. ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه» (متى ٢٣: ١٩-٢٢).

في شرح الأسرار عند الآباء الشرقيّين، يبلغ المذبحُ المسيحيُّ كمالَ رمزيّته المتنوّعة في حيويّة الاحتفال الليترجيّ التي تمثّل في آنٍ معاً جميعَ أصعدة النموذجيّة المقدّسة، منذ سابق تصوّرها في العهد القديم حتى ملءِ اكتمالها في الجديد. هكذا يكون المذبحُ المسيحيُّ، في الوقت عينه، إتماماً لقدس أقداس الهيكل القديم، ولمذبح الجلجلة للذبيحة الجديدة، ولمائدة العشاء السرّي التي سبقت وصوّرته. وهو أيضاً كمالٌ لقبر السيّد؛ ولمكان قيامته، مصدرِ كلِّ نعمةٍ أسراريّة تفيض من المذبح علينا؛ وكمالٌ لمذبح الليترجيّا السماويّة التي تمثّل ليترجيّا الكنيسة والإيقونةُ صورتَها، «سماءً على الأرض يسكن فيها ويمشي الله والذي هو فوق السماوات»[٨٣].

١٠٤. المقدِس

في الكنائس الشرقيّة، يُقسمُ المكانُ المقدّس إلى عدّة أمكنة عمليّة يرتبط بعضها ببعض بانتظام. إنه صورةُ كنيسة

[٨٣] جرمانوس القسطنطيني، **التاريخ الكنسيّ**، ص ٩٨، ٣٨٤ ب.

الله، ودعوةٌ مقدّسة إلى المؤمنين الحاجّين نحو أرض الميعاد. كلُّ عضوٍ يحتلُّ فيه مكاناً مميّزاً يتوافق ورسالته.

يفصل المقدِسَ عن صحن الكنيسة حواجزُ وسائرُ أو إيقونسطاسات، إذ إنه المكان الأقدس: هنا يُقام المذبح الذي عليه يُحتفل بالليترجيّا الإلهيّة وتقدّم الذبيحة، فيدخله وحده من أوكلت إليه الخدمةُ المقدّسةُ ليتمّ الشعائر المقدّسة.

وتنظّم تطوافاتٌ وحركاتٌ أخرى العلاقةَ بين صحن الكنيسة والمقدِس فتوجّه، تدريجيّاً وبطريقةٍ تنقيفيّة، المؤمنين نحو المذبح. هنا يوضع الإنجيل المقدّس على الدوام؛ ومن هنا يؤخذ باحتفال لخدمة الكلمة، وإلى هنا أيضاً تُنقل القرابين، في بدء الخدمة الإفخارستيّة ذاتها، كي تقدَّم للربّ. ومن المذبح حيث وُضعت القرابين، تخرج باحتفال من المقدِس كي تعطى للمؤمنين، تعبيراً عن أن الحجاب الذي يستر سرّ الله قد أزيح، في الوحي، وبالأخصّ، في التجسّد وفي سرّ الابن الفصحيّ.

١٠٥. الأمبون

يأخذ الأمبون في التقليد الشرقي أشكالاً عديدة لها تعبيرٌ متشابهٌ نوعاً ما. ففي التقليد المسيحيّ اليونانيّ، كان بناءً يُعلن منه الإنجيل أو تُلقى العظة، أو يعتليه المرتّمون لأداء دورهم. في تقليد الكنائس السريانيّة يوازي الأمبون **البيما**،

وهو مصطبة تُبنى وسط الكنيسة تحتوي على مقاعدَ للأساقف والكهنة وعلى مذبح صغير مع الصليب وعلى كتاب الإنجيل وشمعتين، وتدعى «**الجلجلة**». هنا يتلو الشمّاسُ الإنجيليُّ الإنجيل، وهنا تُلقى العظة. وكما تدلُّ على ذلك العبارتان («آمين» يذكّر بالارتفاع، و«الجلجلة» بموت الربّ ودفنه)، تذكّر رمزيّة الأمين أيضاً بقبر الربّ الفارغ، حيث قام من بين الأموات، والباقي «علامة» حيث «ملاك القيامة»، الشماس الإنجيليّ، يعلن على الدوام إنجيل القيامة[٨٤].

من المهمّ إذن أن يدرس المسؤولون بانتباه، لدى ترميم كنائسَ قديمة أو بناءِ جديدة، الرمزيّة المعبّر عنها فيها، وليأخذوا ذلك بعين الاعتبار بدقّةٍ، وليتوقّعوا إمكانيّة إعادة استخدامها، بالتوافق مع التقليد الخاصّ.

١٠٦. النرتكس وبيت العماد

وممّا يكمّل مجموعة مساحة الأبنية المقدّسة في الكنائس الشرقيّة لدينا النرتكس وبيت العماد.

يقع النرتكس عند مدخل الكنيسة، حيث تقام من جملة ما يُقام عدّةُ احتفالات، مثل تلك التي تخصّص للموعوظين والتائبين، وصلواتٌ غيرُ احتفاليّة أو أكثرُ دعوةً إلى

[٨٤] المرجع نفسه، ص ٩٨، ٣٩٢ آ.

التوبة، وتطوافاتٌ، وتلاوةُ الساعات الصغرى في الصلوات الطقسيّة.

يُدعى بيتُ العماد أيضاً (Kolymbêtra) ، أي بركةَ التغطيس في موت المسيح، أو «الأردنّ»، النهر الذي قدّسه عمادُ الربّ في الروح القدس، الذي يصبح أيضاً ماء الموت عن الخطيئة. تُظهر التقاليدُ القديمة في الشرق والغرب تنوّعاً كبيراً في شكل بيوت العِماد. لكنّها جميعها اتّسمت بميزة مشتركةٍ، ألا وهي أن تمثّل القبرَ الذي فيه يُغطَّس [المعتمدون] للموت مع المسيح، ومن ثمّ يخرجون قائمين من بين الأموات معه، بفعل روح الآب.

بيتُ العماد يجب أن يُقام، على جري العادة، خارجاً عن الكنيسة نفسها، لأن فقط بعد المعموديّة والمَسحِ بالميرون المقدّس يُعتبر المتقدّم للعماد عضواً كاملاً في الكنيسة، فيستطيع من ثمّ أن يدخل الهيكل الذي يرمز إليها. وليُقَم بيتُ العماد على الأقلّ قرب مدخل الكنيسة في الحالات التي يستحيل فيها بناؤه في الخارج، نظراً إلى هيكليّة الأبنية القديمة.

١٠٧. الصلاة بالاتجاه نحو الشرق

منذ أزمنةٍ عريقةٍ في القدم، درجت العادة في صلاة الكنائس الشرقيّة بأن يجثو [المصلّي] حتى الأرض متّجهاً نحو الشرق. والأبنية المقدّسة نفسها كانت تبنى بحيث يكون المذبح متّجهاً نحو الشرق. يشرح يوحنا الدمشقيُّ معنى هذا التقليد

بقوله: «ليس هو من الأمور البسيطة ولا هو على سبيل الصدفة أنّا نتّجه في صلاتنا نحو الشرق (...). بما أن الله نور عقليّ (١ يو ١: ٥) وأن المسيح يسمّى في الكتب المقدّسة شمسَ العدل (ملا ٣: ٢٠)، والمشرق (زك ٣: ٨، بحسب الترجمة السبعينيّة)، وجب تخصيص الشرق لتأدية العبادة له (...). يقول الكتاب: «وغرس الربُّ الإله جنّةً في عدن، في المشرق، وجعل هناك الإنسان الذي جبله» (تك ٢: ٨) (...). إذن نحن نلتمس وطننا القديم فنتّجه إليه ونسجد للربّ. وكان الخِدرُ الموسويُّ أيضاً له حجابُه ومغتفره موجّهين نحو الشرق. وقبيلة يهوذا، بما أنها كانت الأكثر كرامةً في القبائل، استوطنت ناحية الشرق (راجع عد ٢: ٣). وفي هيكل سليمان، كان باب الربّ متّجهاً نحو الشرق (راجع حز ٤٤: ١). وأخيراً كان الربُّ وهو على الصليب ينظر إلى المغارب، ومن ثمّ نسجد ونتّجه نحوه. والربُّ، في عودته إلى السماء، قد ارتفع نحو المشارق، وهكذا سجد له التلاميذ، وسيأتي هكذا كما عاينوه منطلقاً إلى السماء (راجع أع ١: ١١)، على حدِّ ما قال الربّ نفسه: «مثلما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، كذلك يكون مجيءُ ابن البشر» (متى ٢٤: ٢٧).

إذن بانتظار مجيءِ الربّ نسجد نحن نحو المشرق. إن هذا تقليدٌ غير مكتوب، جاءنا من الرسل»[٨٥].

هذا التفسيرُ الغنيُّ والجذّاب يشرح أيضاً السبب الذي لأجله يصلّي المترئّسُ الاحتفال متّجهاً نحو الشرق، وكذلك الشعب الذي يشارك في الاحتفال. في هذه الحال، ليس المقصود، كما يتردّد في الغالب، أن يرئس المحتفلُ الصلاةَ مولياً ظهرَه للشعب، بل أن يقود الشعبَ في مسيرته نحو الملكوت الذي يتوسّله بالصلاة حتى مجيءِ الربّ.

إن مثلَ هذه الممارسة التي يهدّدها في العديد من الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة تأثيرٌ لاتينيٌّ جديدٌ وحديثُ العهد، لها إذن قيمةٌ راسخةٌ ويجب المحافظةُ عليها وكأنها تتوافق تمامَ التوافق والروحانيّةَ الشرقيّة.

١٠٨. الإيقونات أو الصورَ المقدَّسة

للإيقونات المقدَّسة قيمةٌ عظمى، على الأقلّ في بعض الكنائس الشرقيّة. إنها تقدّم لأنظار المؤمنين رؤية العظائم التي صنعَها الله على الأرض، بالأخصِّ ما صنعه بواسطة الكلمة المتجسّد، ولكن أيضاً ما صنعه بواسطة القديسين والكنيسة. ولهذا السبب حقّاً تتّسم الإيقونات بأهميّة عظمى في الحياة

[٨٥] يوحنا الدمشقيّ، **إيضاحٌ في الإيمان الأرثوذكسيّ**، الكتاب ٤، الرأس ١٢، ص ١١٣٣-١١٣٦.

الليترجيّة. إحدى ميزات الليترجيّا الرائعة، هي في الواقع أن تحتفل وتذكّر وتؤوّن مختلِف الأزمنة التي يتحقّق فيها خلاصنا سرّياً. إن تصوير تاريخ تلك الأحداث بالرسوم، يمكنه إذن، بطريقة سامية، أن يُسهم في الإيحاء بها وترسيخها في ذهن وقلب الذي يتأمل فيها. كلُّ جزءٍ من ذاك التاريخ المقدّس يشكل، في الواقع، عملاً من أعمال القدرة الإلهيّة.

معنى الإيقونات المميَّز، بالمقارنة مع صوَر أخرى، يقوم على أنها تستحضر وتمثّل، لا مظاهرَ بشريّة، كما تبدو للعين الأرضيّة، بل الجِدَّةَ المسيحيّة المطلقة، «... ممّا لم ترَه عينٌ، ولا سمعت به أذُنٌ، ولا خَطرَ على قلب بشر»، ما أعدَّه الربُّ «لمحبّيه» (١ كو ٢: ٩)، إذ يُعيد ولادتَهم من العلاء ويُريهم ملكوت الله (راجع يو ٣: ٢).

إن مجرَّد التعبير عن بُعد الأشخاص السماويّ الذي تمثّله الإيقونات، يوليها ميزةً مقدّسة، تُشارك نوعاً ما في ما هو إلهيّ. لذلك، فالإيقونات هي موضع عبادةٍ مباشر، وتكرَّم على غرار ما تكرَّم إيقوناتُ السيّد وأعمالُه والقدّيسون الذين تمثّلهم الإيقونات.

على مدى القرون، طوّرت الكنائس الشرقيّة والكنائس الغربيّة تقنيّاتٍ وأشكالاً وأساليبَ متناسقةً للتصاوير المقدّسة، تعبيراً عن إيمانها وبغيةَ تقريب [ذاك الإيمان] من

الناس. وفيما، في القرون الأخيرة، تطوّر الفنُّ المسيحيُّ الغربيُّ متخذاً خطًّا طبيعيّاً، ظلّت الكنائس الشرقيّة أكثر أمانةً للأسلوب القديم في الإيحاء بالحقائق السماويّة وتصويرها. وحتى اليوم الحاضر، هناك مدارس عديدةٌ ومختلفةٌ تواصل ذاك التقليد وتنتج إيقوناتٍ ورسوماً وأقمشةً وأدواتٍ أخرى هي امتدادٌ للنماذج القديمة، دون التنكّر في الغالب للحساسيّة الثقافيّة الحاضرة. ولقد عاد الغربُ نفسه واكتشف محتواها الرفيعَ الإيمانِ والفنّ.

غالباً ما أُخضع العديدُ من الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، في هذا المضمار، لعوائدَ غربيّة، ذاتِ مستوىً منقوص، تبدو لربّما أكثر سهولةً من غيرها، ولكنها غريبةٌ عن متطلّبات تقليد [تلك الكنائس] الخاصّ ومعناه. فلا بدَّ من الإعداد لاستردادٍ منظَّم للعوائد الخاصّة، إذا ما أريد تجنّبُ مظهرٍ هجينٍ ومناقضاتٍ في أثناء الاحتفالات. تنظيم الأمكنة، والإيقونات، والثياب الطقسيّة، والأدوات المقدّسة، كلُّ هذه لا تخضع لمزاجِ أيّ شخصٍ، بل يجب أن تتطابق ومتطلّباتِ جوهر الاحتفالات، فيتناسقُ بعضُها مع بعض.

١٠٩. واجبُ الأمانة للتقليد

لا يمكن أن ننكر أن الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة قد تعرّضت، في أوقاتٍ حديثةِ العهد وبَعيدِها، لتأثير طرازٍ من

الفنّ المقدّس غريبٍ كلَّ الغرابة عن تراثها، سواءٌ في ما يخصُّ شكل الأبنية الكنسيّة الخارجيّ، أو توزيع المساحات الداخليّة، والإيقونات. إلاّ أنه يُستنتج من الملاحظات الواردة سابقاً أن هناك وحدةً متناسقة في الأقوال والحركات والمساحات والأدوات تخصّ الطقوس الشرقيّة وتميّزها. فيجب على الدوام العودة إليها كلّما وُضعت تصاميم لأمكنة للعبادة جديدة. وهذا يتطلّب بالطبع معرفةً عميقة للتقليد، من قبل الإكليروس، وتثقيفاً دائماً للمؤمنين راسخَ الأساس ومنهجيّاً، كي يستطيع هؤلاء أن يُدركوا تمامَ الإدراك غنى العلامات التي يُعهد بها إليهم. الأمانةُ لا تستلزم تصلّباً بائداً، كما يُثبت ذلك تطوّرُ الفنّ المقدّس – حتى في الشرق – بل تقتضي نموّاً كاملَ التناسق مع معنى ما يُحتفل به العميقِ والثابت.

١١٠. لجنة الفنِّ المقدَّس

على مختلف الكنائس ذاتِ الشرع الخاصّ أن تجد خبراءَها الأخصّاء في هذا المضمار وتثقّفهم، وأن تُنشىءَ عند الضرورة وبلا إبطاء، حيث تقتضي الحاجة، لجاناً للفنّ المقدَّس، تُسنَدُ إليها مهمّةٌ واضحةٌ كلَّ الوضوح، ألا وهي التحقُّق من أن مشاريع الكنائسِ أو المصلّيات الجديدة وتزيينها، وترميمَ القديمة منها، تتوافق ومعاييرَ ومعانيَ تقليدها الليترجيّ الخاصّ. ومن واجب تلك اللجان أيضاً أن تتفحّصَ

حالة الأبنية الحاضرة، فتقترحَ تحسيناتٍ أو تعرضَ مبادراتٍ محتملة.

١١١. إنشاء مكتبٍ مركزيّ للفنّ المقدَّس

أُنشىءَ لدى مجمع الكنائس الشرقيّة بالتعاون مع اللجنة الحبريّة لممتلكات الكنيسة الثقافيّة مكتبٌ للفنّ المقدّس يهدف إلى مساعدة الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة في الحفاظ على تراث فنّها المقدَّس الخاصّ، وإلى صياغة تعليماتٍ لبناءِ كنائسَ جديدة، وللتنظيم الداخليّ أو لإعادة بنية المساحات الموجودة. فيمكن المطارنة أن يلجأوا إلى هذا المكتب، بالأخصّ إذا لم يتوفّر لهم خبراءُ في منطقتهم، في حال اضطرّوا إلى مباشرة عملٍ ممّا ورد ذكره أعلاه.

خاتمة

١١٢. اعتباراتٌ ختاميّة

يهدف التوجيهُ الحاضر إلى مساعدة الكنائس الشرقيّة المتحدة اتحاداً كاملاً مع كنيسة رومة، في سعيها لإعطاء الاحتفالات الطقسيّة مكاناً مرموقاً يعود إليها في الحياة الكنسيّة، مع الأمانة التامة للعبقريّة الخاصّة التي تميّز التقاليد.

الإصرار على الاستعادة الكاملة للتقليد لا يعني أن يتمَّ ذلك على حساب التكيّف، الضروريّ هو أيضاً، والتحسّسَ الثقافيَّ المعاصر. في المستقبل، يجب أن تعالج هذه الرؤية عن كثب، مع الرجاء بأن يباشر ذلك بعد أن تؤخذ بعين الاعتبار الخبرة التي يمكن أن تكتسبها الكنائسُ الأرثوذكسيّة أيضاً، بالأخص في المناطق التي يتوسّلون فيها رأيها حول هذا الموضوع.

بانتظار ذلك، تبيّن أن لفت النظر إلى بعض المعايير العامة هو بالغُ الأهميّة. تبغي هذه المعايير قبل كلّ شيء إضفاءَ تماسكٍ تامٍّ في إقامة ليترجيّا الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، بحيثُ يُغني مثلُ هذا التراث المميَّز الكنيسةَ جمعاء.

يمكن أن تكمِّل المقترحات الواردة هنا بإسهام وتفكير كلّ كنيسة ذات شرعٍ خاصّ، فلا تألو جهداً في منحها الاهتمامَ الضروريّ، وفي درس كيفيّة تطبيقها، مع ما هنالك من تنوّع في كلّ تقليد وكلّ حالة. لتأليف نصّ هذا التوجيه استعان مجمعُ الكنائس الشرقيّة بالخبرة العظيمة التي اكتسبها من عملٍ دام عقوداً من الزمن، في قطاع الليترجيّا، بفضل جهد اللجنة الليترجيّة التي تعمل في إطاره والتي توصّلت إلى نشر نصوصٍ طقسيّة قدَرها حقَّ قدرها، ليس فقط الكنائسُ الشرقيّة الكاثوليكيّة، التي أرسلت إليها تلك النصوص قبلَ الكلّ، ولكن أيضاً بحّاثةٌ وإخوةٌ أرثوذكسيّون. فنتوجّه بشكرٍ مشترك إلى أعضاء هذه اللجنة الذين كرّسوا ولا يزالون يكرّسون وقتاً وكفاءاتٍ في خدمة كنائس الشرق.

نسأل العذراءَ مريم، الثمرةَ الأجمل للفداء، الأمَةَ الوضيعة المستعدّة لتتميم مشيئة الآب، السفينةَ المقدَّسةَ للابن الذي اتّخذ الطبيعة البشريّة، الهيكلَ الذي غمرته قدرة الروح القدس بظلّها، تلك التي تقبّلت كلمة الله وحفظتها في قلبها، والتي مجّدت عظمة الله وعطفه، ورفعت إليه نشيد تسبيح.

نسأل أمَّ الكنيسة أن تعضدَ التزامَ الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة الذي يصبو إلى إنعاش التراث الطقسيّ، وتسدّد خطاها في مسيرها نحو الليترجيّا الكاملة في السماء، ومن أجل

ذلك اليوم، عند مجيءِ الربّ، إذ يُسمح للبشريّة أن تــرى الله كما هو، في سجودٍ دائمٍ للثالوث الكليّ قدسه.

صدر عن مقرّ مجمع الكنائس الشرقيّة،
في السادس من كانون الثاني ١٩٩٦،
في الاحتفال بعيد الظهور الإلهـــــيّ

الكردينال آشيل سيلفستريني

الرئيس

+ ميروسلاف س. ماروشين

أمين السرّ